

في الأرض المقدسة

(بِإِذْنِ مُصَيِّرِ وَأَبْحَازِ)

بقلم

أبراهيم محمد جيب

المفتش بوزارة الداخلية

حالا

وعضو مجلس النواب

والقاضي بالحاكم الوطنية

ومدير تحقيق الشخصية

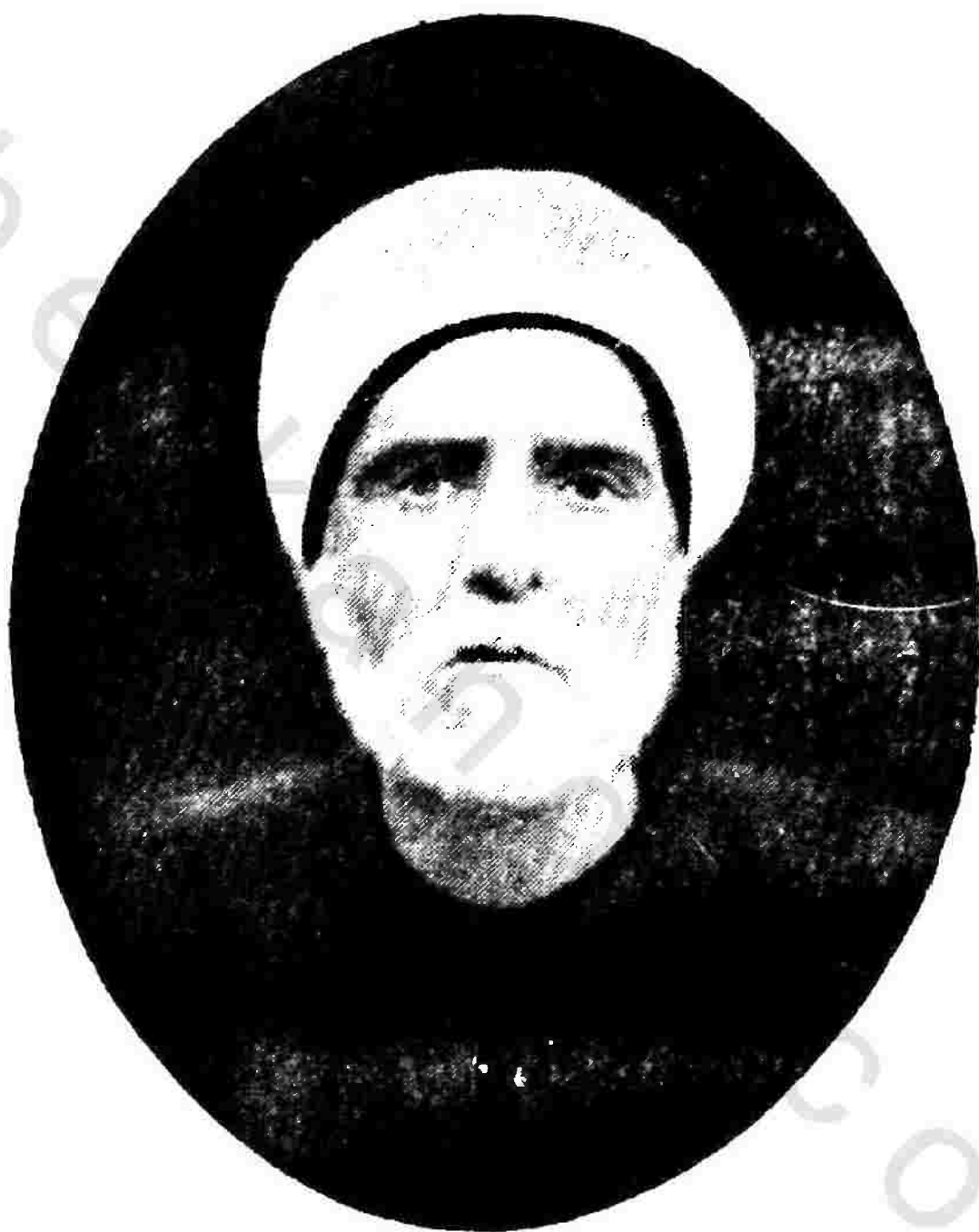
سابقا

راجعه ووقفت على طبعه جامعة القلم

٥٣ شارع ابراهيم باشا بالقاهرة



حمزة صاحب الجلالة ملك الحجاز



شيخ العرب محمد حسن حميد
(والد المؤلف)



المؤلف وهو يقرأ في كتاب

إلى أبي :

الذى كان سبب وجودى

والذى هذبى ورعانى

والذى استصحبنى فى هذه الرحلة المباركة .

أعبدى هذا الكتاب ؟

المؤلف

تقديم

كنا أترابا في قرية واحدة ، جمعنا النشأة واللعب ، ثم
فظمتا المدرسة الأولية في سلك واحد .

فلما أتممنا المرحلة الأولية سارع هو إلى الالتحاق بالمدرسة
الابتدائية ، واتجهت إلى المعهد الديني ، فافترقنا . كنت لا ألقاه
إلا في الإجازات الموسمية والسنوية . ومع أنه من أبناء الأعيان
فقد نشأ بيتنا ميل فطري إلى اللقاء والصحبة يختلف عن
ميلي إلى الأتراب الآخرين ، ما كنت أعرف مصدره ، ولعله
هو الآخر ما كان يعرف مأناه ، وظننت أن ذلك الميل
الفطري تعدو عليه الأيام حين نفرق لإتمام دراستنا ، ولكني
رأيت الأيام تزيده توثيقا وارتباطا ، كنا كلما كبرنا ازداد
الإخاء وتوطدت أواصر الصحبة ، وأخذ كل منا يستقبل وجه
الحياة بفطرته واستعداده .

اختلفت الطريقة التي يواجه كل منا بها حياته ، فهو
يواجهها بأسلوب أبناء المدارس ، وأنا اتقبلها بطريقة أبناء
المعاهد ، فكنا إذا التقينا اشتد بيتنا الجدل أحيانا ، لكنه
على فرط اشتداده لم يعكر صفو الصداقة التي ثبتت شجرتها
على الأيام ، بل لقد كنت ألحظ أن عنفي في بعض الآراء
يزيده تشبها بصداقتي وإخائي .

وأنتمت دراستى التى كانت مرحلتها قصيرة ، والتحقّت بالصحافة ، وكأنه غبطنى على هذا التوجه ، وفرح بهذا المنهج الذى اخترته وحدى ، وكان هو ما يزال طالبا فى المدارس الثانوية ثم التحق بعدها بمدرسة الحقوق ، فازدادت صلتنا بهاء وتعاوننا ، كان يحب ان يرانى ويرى ماجد على عقلى من تطور واتساع ، وكنت حريصا على أن أزوره وأشبع روحى بالعاطفة المثالية التى نشأ يغمرنى بها .

ودلف الى المحاماة وبداله نشاط ملحوظ فى الكتابة الاصلاحية كنت ألمس فى ثنياه حياة نابضة قوية ، ثم نال شهرة شجعت على أن يرشح نفسه لعضوية البرلمان ، ثم لم يرض عن الحياة النيابية اذ ذاك ، فقنع بوظيفة وكيل نيابة ، ودارت الأيام فإذا هو قاض ، ثم اذا هو بعد ذلك مدير ادارة تحقيق الشخصية ، ثم اذا هو مفتش بوزارة الداخلية . ذلك هو الأستاذ ابراهيم محمد حبيب . مؤلف هذا الكتاب . لم أعرفه فى حفل ، أو فى سفر أو فى اية مناسبة من المناسبات التى تؤسس العلاقات العصرية ، ولكنى عرفته صبيا يلاعبنى وألاعبه ثم تلميذا ينافسنى وأنا نفسه ، وما زلنا منذ فجر الحياة الى اليوم نستقبل الحياة ، ونقبل خيرها وشرها باسمين .

أما هو فقد وفق فى ربيع عمره الى أداء فريضة الحج ، رغم شواغله ورغم مباهج الحياة التى تحيط به وتصرف أمثاله عنه . وكتب عنها هذا الكتاب الذى رأيت أنه يصلح للنشر ، وحسبى أن أقول إننى عرفته منذ عرفته يجرى على سجيته

في حب الحياة والناس ، لا تجد في طريقته اصطناعا ولا تعملا ،
يذل أقصى جهده في سبيل الخير الذي يؤمن به ، ويحرص
على ارضاء الله ، وبر والديه وأسرته وكل من يتصل به من
الاحياء . ويحب الإنتاج الفكري حبا يفنى فيه بكل قواه .

وقد استطاع أن ينحو في عرض هذا الكتاب نحو شيئا ،
يز أوتار القلوب ، ويؤثر في النفوس ويبعثها للوجدانات العلوية
في كل موقف من المواقف التي تفيض رهبة وجلالا وخشوعا
وتسمو بها عن كل أعراض الدنيا لتفنى في ذات الله جل جلاله .

ولهذا كله ، ولأن موضوع الكتاب مثار وجدانات دينية
حبيبة الى قلوب المسلمين كافة ، ودعوة يسيرة الاستجابة لتحقيق
العطف والرحمة لشعب تكفل الله جل شأنه في محكم آيه بحنين
القلوب اليه ، لتيسير رزقه في مقره المقدس ، جهدت في إخراجه .

وحسبي ، وفاء للصدقة التي نبتت مع الصبا ، وازدهرت
على مر السنين ، وتحية من روعي المشوقة للبيت العتيق ، ولآله
الذين لهم عند المسلمين أعز مقام ، وحبا لله ذي الجلال
الذي جعل مكة أشرف البقاع ، وتلبية لأسمى اغراض المسلمين ،
ما بذات من جهد في إخراج هذا الكتاب ، والله على
ما أقول شهيد ؟

على محمد بركة

سكرتير جامعة القلم

هَذَا الْكِتَابُ

لم أكن حين سافرت إلى الأراضى الحجازية فى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٣٨ ، لأداء فريضة الحج ، قد اعتزمت تدوين هذه الرحلة ، فما احتفظت به من مذكرات عنها لم احتفظ به أساسا للنشر ، ولكن عندما عدت فى الرابع من شهر مارس ذلك العام لقيت وزير العدل يومئذ فأشار على بنشرها ، فبدأت أنشرها فى «السياسة الأسبوعية» التى كان صدورها إذ ذاك يتوالى تحت عنوان « بين مصر والحجاز » .

ومنذ عامين أشار على « الأستاذ على محمد بركة » سكرتير جامعة القلم بجمع هذه المقالات فى كتاب تسجيلها ، ووفاء للأرض المقدسة التى كتبت عنها ، وبرأ بأهلها وبمن يستحقون التنويه من رجالاتها ، وكنت كلما هممت بذلك عاقتنى مشاغل الوظيفة وأعباء أخرى كانت تستنفد كل وقتى وتفكيرى ، ولكنى فى هذا العام صحت عزيمتى على إخراجها فى كتاب ، تيمنا بها ، ومساهمة فى الإشادة بفضل الحجازيين ونشاطهم الذى بدأ يتجه نحو الإصلاح والوثوب الى التقدم السريع فى كل النواحي ، ولاطمئنانى للإخلاص والعناية والتعهد العلمى والفنى الذى أخذت تساهم به « جامعة القلم » فى خدمة المؤلفين والمؤلفات .

ورأيت أن انهج في كتابة هذا المؤلف نهجا قصصيا ، ليكون سهل التناول ، شيق العرض ، وحرصت على ذكر المناسك الدينية في مكان أدائها ووقته ، كما رأيت أن اعرض هذه المناسك في نهاية الكتاب عرضا مجملًا مرتبًا لتسهيل مراجعتها والاسترشاد بها أثناء الحج لمن أراد .

ولا يفوتني أن أسجل أن القطر الحجازي قد جدت فيه بعد أدائي الحج في سنة ١٩٣٨ اصلاحات عمرانية هامة بفضل جلالة ملكها الدائب على ترقية هذه البلاد ، ونشر الأمن والإصلاح بين ربوعها ، ولهذا فإنني جمعت هذه الاصلاحات ودونتها كذلك في نهاية الكتاب ، كما لا يفوتني أن أنوه بما كان لنفحات استاذي وصديقي العالم السيد محمود ابو الفيض المنوفي ولحسن صحبته من أثر في إخراج هذا الكتاب .

واني أسأل الله أن أكون بهذا النشر قد أدت بعض الواجب على لمن تهفو قلوبهم الى الأراضى المقدسة التي أنزل فيها القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

المؤلف

ابراهيم محمد حبيب

محمد صلى الله عليه وسلم

محمد عليه السلام هو محور هذا الكتاب ، فهو الذى طهر الكعبة من الأصنام ، وهو الذى أنشأ الحرم المدينى ، وهو الذى نزل عليه الوحى ان الحج فرض من الفرائض وركن من أركان الإسلام ، وهو الذى أنزل الله عليه قوله الكريم « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، وهو الذى قال « يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا » وهو القائل « من لم تمنعه من ذلك حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » .

فمحور هذه الرسالة هو محمد عليه الصلاة والسلام . وفى محمد كتبت مقالات طوال ، وأسفار ضخام ، فهو ملء مكة ، وملء المدينة ، وملء الحجاز كلها ، وملء الدنيا بأجمعها ، حتى الذين ما يزالون يتشبهون بأديان أخرى أخذوا بتشريعاته وجروا على تعاليم دينه ، فلست الآن بصدد ذكر حياته وأثر رسالته . لكن فى مثل هذا الكتاب — ومحمد أكبر حافز على كل ما سطر فيه — ينبغى أن يفتح بإمامة قصيرة عن تاريخه الحافل .

لقد اشتدت الحياة على محمد شدة لم تلازم رجلا ممن
اختارهم الله لهداية الخلق ، فقد أدركته وهو طفل ، ولاحقته
وهو صبي ، وامتدت إليه وهو رجل ، ولازمته حتى لقي ربه بعد
جهاد عنيف . وكان صلى الله عليه وسلم يتقبل كل صنوف الشدائد
والحن بصدر أرحب من الأفق الواسع ، ونفس مطمئنة واثقة
انه يجاهد لدين الله وإعلاء كلمته ، فأدى رسالته كاملة ، فصار دينه
هديا ونبراسا خالدا في العالمين على الايام والأجيال .

هاهو عبد الله بن عبد المطلب يبني بأمنة فما يكاد يستودعها
محمدًا حتى يغادرها في سفر إلى الشام يلتمس من تجارها
الكسب والغنى ، فإذا المنية تدركه ، وإذا الموت ينشب فيه أظفاره
قبل أن يعود إلى داره ، ويولد محمد فلا يرى له أبا ، ثم ترضعه
حليمة في مضارب بني سعد حتى إذا ترعرع عاد إلى مكة ، وإذا
تقع عليه عين أمه يجدد في نفسها ذكرى أبيه فتوجه لتزور قبره
ومحمد معها ، ثم لا تلبث أثناء عودتها من هذه الزورة أن تعثرها
العلة ويلازمها الألم فتقضى نحبها في الطريق .

ويعود محمد إلى مكة فقيد الأم والأب . ويكفله جده عبد
المطلب ، ويضفي عليه من الرعاية والحب ما لم يضيفه جد على
حفيد ، ولكن الموت يختطف هذا الجد أيضا ويترك محمدًا
في كفالة عمه أبي طالب .

تلك هي المحن والأحداث التي أملت بمحمد طفلا ولا حقه غلاما فيصمد لها ويترععرع في أحضانها برعاية الله وحده الذي خلقه للرسالة العظمى وهياه لها منذ نشأ ، فهو يحب إليه رعاية أغنام عمه وأغنام طائفة من أهله تمهيدا لرعاية العرب كلهم ثم الإنسانية جمعاء .

واستمر هكذا قوى النفس ، رضى الخلق ، عف اللسان ، عف البصر ، امتحنته الأيام بعنف فصمد لها ، ولوحت له بالنعمة فامتنع عليها ، وكأنه كان يجرى في ذلك الوقت على نهج لم يكشف له بيانه .

واصطفته خديجة بنت خويلد لتبعه على تجارتها إلى الشام حتى إذا عاد من هذه التجارة موقفا أعظم توفيق أرادت مضاعفة أجره فأبى أن يأخذ أكثر مما عاهدها عليه ، وكان له في نفس خديجة أثر شغلها واحتل من نفسها كل فراغ . فكرت أن تقترن به ، ثم استبعدت ذلك لكبر سنها . لكن الفكرة استبدت بها فأرسلت إليه إحدى صديقاتها لتعرض عليه ذلك فشكا قلة ماله فذلت له ذلك ، وتكفلت بإعداد نفسها لهذا الزواج ، فعرض ذلك الأمر على عمه أبي طالب فأقره وتزوجها بمد أن دفع عمه أبو طالب مهرها عنه .

و ذات يوم وجد معتكفا بغار في جبل حراء ، ثم عاد إلى مكة

فأخذ يطوف بالبيت ويعجب لتلك الأصنام التي تعبد بها قريش وغير قريش . ثم استمر يتردد على الغار ويعود إلى مكة ، ولكنه يعود ذات يوم من غار حراء مرتجفا يطلب فراشا وغطاء ونام حتى إذا صحا من نومه سأله خديجة عما أصابه فيقول : إني لفي حراء أتعبد إذ هبط على شخص من السماء ودنا مني وهو يقول : أبشر يا محمد ، أنا جبريل ، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة نخفت منه أشد الخوف وخشيت على نفسي . ثم دنا مني وقال : اقرأ فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى وغطنى بالنمط الذى أنام عليه حتى بلغ منى الجهد مبلغه ، ثم أرسلنى وقال اقرأ ، قلت ما أنا بقارىء . فأخذنى وغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ثم قال « وإني لأخشى على نفسك يا خديجة ، فقالت له والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل فقال إنه الناموس الأكبر الذى نزل على موسى وعيسى ، ثم مال على محمد وقال : « والله لتؤذين ولتخرجن من هذا البلد » فقال محمد : ومن يخرجني ؟ قال يخرجك قومك قال « أو مخرجي هم » قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ،

ودعا محمد إلى الدين الجديد ، واشتدت عليه قسوة قريش
كما اشتدوا على مناصريه وساموهم أنواع العذاب ، وكانوا كلما
ازدادوا بهم تنكيلا ازدادوا بمحمد وبدينه تمسكا ، واثمروا على
قتله وعرف محمد خبر هذه المؤامرة فأتى بعلي بن أبي طالب وارقه
في مكانه ثم خرج مع أبي بكر والمؤتمرون بالباب في نوم عميق
فلم يشعروا . وسار مع رفيقه — الصديق حتى وصلا إلى الغار
فاختفيا فيه ونسج العنكبوت عليه خيوطاً . واستيقظ المؤتمرون
فلم يجدوا محمداً ووجدوا علياً في مكانه ، فخرجوا في إثره يبحثون
عنه حتى وصلوا إلى الغار فوجدوا العنكبوت ناسجا خيوطه
حتى سد الباب سدا يدل على أن أحداً لم يدخله منذ سنين . وأقام
في الغار ثلاثة أيام ثم غادره إلى المدينة فاستقبله أهلها بالبشر
والترحاب ، وأخذوا يتنافسون في استضافته حتى خشي محمد
أن يؤدي ذلك إلى خلاف جسيم ، وعرض عليهم أن يتركوا
الناقة تذهب حيث تريد ، حتى إذا وصلت الناقة إلى مكان الحرم
أناخت فقال هذا بإذن الله منزلنا ، ثم بنى فيه الحرم وبنى له منزلاً
متصلاً ، به وأخذ ينشر الدين في صحبة من المهاجرين والأنصار .
وعلمت قريش بما أحرزه من نصر فتوجهوا إلى المدينة للقاءه
فخرج اليهم برجاله وقضوا عليهم . ولما عاد إلى مكة بعد ذلك

استقبله أهلها استقبال الفاتحين ، ولكن فريقا منها تجمع للكيد به .
وقامت الحرب فنصره الله إذ ذاك نصرا عزيزا . وخشى أهل
المدينة أن يبقى الرسول في مكة وطنه الأول وحدثوه في ذلك
فطمأنهم .

ولما أقاموا في المدينة أذن رسول الله في الناس بالحج فخرجوا
إلى مكة واجتمع فيها إذ ذاك مائة ألف أو يزيدون يهتفون
بصوت واحد: ليك اللهم ليك لا شريك لك ليك ، إن الحمد
والنعمة لك والملك لا شريك لك ، حتى إذا ما أطل على البيت
العتيق قال : اللهم زده تشريفاً وتعظيماً ومهابة ونورا ، وطاف
به وسعى بين الصفا والمروة حتى إذا صعد الصفا قال لا إله إلا
الله ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده
وهزم الأحزاب وحده ، ثم ذهب إلى عرفات وخطب
في الناس فقال : أيها الناس اسمعوا مني ابن آدم فإني لا أدرى
لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقعي هذا ، فلا ترجعن بعدى
كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فطافت بالمسلمين الظنون
وأحسوا أنه ينعي نفسه ، وإن هذه هي حجة الوداع ، فلما تلا عليهم
قول الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الإسلام ديناً ، انقلبت الظنون يقيناً ووجموا
وزاغت أفئدتهم ، وخشوا أن يفارقهم ، فلما عادوا إلى المدينة

أخذوا يلحظونه كل يوم فإذا رأوا العافية بادية عليه سـروا واستبشروا، فلما دخل عليهم المسجد يوماً ورأوه مريضاً هلمت نفوسهم فلما قال على المنبر: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتیه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختر ما عنده»، بكى أبو بكر وقال له «فدينك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله»، قال عليه السلام «أيها المسلمون إن أدنى الناس على في صحبته وماله أبو بكر فلو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة في الإسلام، فازداد أبو بكر بكاءً وازداد المسلمون نحيباً.

ثم ألحت عليه العلة فأمر أبا بكر أن يصلى بالناس، وازداد خوف المسلمين وإشفاقهم الا يروه، فخرج عليهم وجلس على أول درجة من درجات المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال «أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد بنى قبلى فأخلد فيكم . ألا إتنى لا حق بربى وإنكم لاحقون بى، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصى المهاجرين فيما بينهم، وأوصيكم بالانصار خيراً فإنهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم فى الثمار؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة . ألا وانى فرط لكم وأنتم لا حقون بى، ألا وإن موعدكم الحوض فمن أحب أن يردده على غدا فليكفف يده ولسانه الا فيما ينبغى .»

وخفت وطأة المرض قليلا فاستبشر المسلمون خيرا
ولكنهم ما لبثوا ان سمعوا البكاء في حجرته ، فأيقنوا أن الله
قضى قضاءه .

وهكذا تمت نعمة الله بتبليغ هذه الرسالة التي آتت ثمراتها
في الأرض فنشرت الهدى والعرفان ، ومحت الضلال والكفران
وستظل خالدة تملأ الدنيا إسعادا وهدى ورحمة للعالمين .

المؤلف

كيف نشأت فكرة الحج

في عصر اليوم الأول من أيام عيد الفطر غادرت مدينة المنصورة حيث أعمل ، إلى قريتي لأقضى بعض الوقت بين أهلي وعشيرتي وجيراني ، ألتبس الرضا والمحبة من أهلي وأشارك مع عشيرتي وجيراني فيما جرت عليه العادة : أهني المسرور وأواسي المحزون فيما عدت به العوادي والمقادير ، وأجود الصلات والعهود بين خلاني وأصدقائي ، وأتحلل من قيود المدنية ومظاهرها إلى الحياة الريفية الهادئة ، وأمتع النفس فوق الهواء العليل والشمس برفاق الصبا وإخوان الصفاء الذين ولدت بينهم ونشأت فيهم . واستنشقت وإياهم نسمات الحياة الأولى وزاملتهم في أيام الطفولة البريئة ، وخطوت معهم إلى الرجولة بقلوب نقية ونفوس رضية ، تلك الطفولة التي لم يكن أحدنا أيامها يفكر أو يدري كيف يفكر فيما يطلقون عليه اسم المستقبل . يوم كنا وكل علمنا بالحياة صباح نستقبله بالبسمات ، ونهار نشغله باللهو والعبث ، ومساء لا ندري من أمره إلا النوم العميق والحلم الجميل . يوم كانت أحمالنا ملقاة على عاتق من يحملونها راضين غير شاكين ولا متذمرين . أردت أن أكون بين هؤلاء لتجدد عندي وعندهم ذكريات عهد مضى ما أحلاه وما أبدعه ، وأتمتع بالريف حيث هناك والد واخوة لا يرون مني إلا حسنا ، يشكرون

كل نجاح ، وينسبون الأخطاء إلى حسن النية وسلامة الطوية
ويتلمسون لى الأعذار ، وهم فيما بين هذا وذاك يعتبرون
السيرة هفوة يسيرة لا تستوجب الاستغفار .

فى هذا الجو الصافى وبين هذه النفوس الطاهرة ذهبت
أقضى أيام العيد ، وكنت قبل ذلك أعلم أن والدى قد عقد العزم
على أداء فريضة الحج هذا العام ، غير أنه لم يكن يرى اعلان
هذا العزم إلا فى مواعده ، ومن رأيه دائماً أن ما ليس فى اليد
لا يرتبط به اللسان ، فالمدى بين العيدين واسع ، وما تدرى نفس
ماذا تكسب ، غداً ، أو لعل لحظة واحدة قد تحمل من الحوادث
ما لا يلتظره المرء فى أعوام د ولا تقولنَّ لشيء إني فاعل
ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، فقد تقهرنا الأيام على عدم المضى
فى أى غرض وإن بيتت النية وانعقد التصميم على انجازه ، فالأمر
لله وحده ، والأمور مرهونة بأوقاتها . فلا داعى إلى الاعلان مادام
المدى غير قريب ، وما دام من واجب الناس أن يستعينوا على
قضاء حوائجهم بالكتمان . وقد يكون الاعلان وحده سبب الإرجاء .
فإن من الأهل والإخوة والاخوات من قد يرى من سن والدى
وصحته ما يدفعه إلى الإشفاق عليه من طول السفر ، وما يذاع
عن وعورة الطريق ومشقة الانتقال كثير ، خصوصاً أنه اعتاد
نظام نوم وطعام وتداو لا يتيسر هناك ، وقد يكون من آثار هذا

الإشفاق ما يحملهم على إقناعه بأن ينثنى عن عزمه وقصده الذى هو جاد فيه . وقد حدث فعلا عند ما ذاع الخبر قبيل السفر أن حضرت أخت له تقيم الحجة والبرهان على أن صحته وحالته لا تحتملان السفر ، وعلى أن الاسلام يعفيه منه ، إذ أن الحج لمن استطاع إليه سبيلا حتى قالت له : ولا شك أنك فى اعتلال صحتك وضعف قوتك غير مستطيع ، ولكن هذا القول لم يصل إلى نفسه ، ولم يتجاوز حد الأذنين ، فقد كان كل شيء من معدات السفر تاما حتى المراسم الطبية ، فطمأن خاطرها وقال لها : إن هنا وهناك أرضا واحدة ، وليس على المرء أن يبلغ التحرز والخوف على حياته حدا يقعد به عن الحركة ، فما تدرى نفس بأى أرض تموت ، وليس القعود بواق من انتهاء الأجل . فالموت مدرك صاحبه ولو كان فى بروج مشيدة ، ثم ختم بقوله : « هأنذا قد أعددت العدة ، وعقدت النية وليس من أصالة الرأى أن أتردد والله يقول » فإذا عزمتم فتوكل على الله ،

وكان من شدة مبالغته فى إخفاء الخبر أيام عيد الفطر أن لم يذكره لى ، فلم أحاول أن أسأل عن مقدار نصيب ما أوصانى به ، مترسما فى ذلك ألا أخرج عن رغبته وإن كنت واثقا أنه لن يخفيه عني أبداً ، لهذا تركته يذكره عندما يريد ، لآحين أريد وكان لا بد لى فى اليوم التالى أن أركب إلى قرية قريبة

فاصطحبت أخى الأكبر فى عربة أقلتنا إلى حيث قصدنا، فأدينا بعض الزيارات ثم عدنا، وفى طريقنا عرض الخبر عرضا فتوسعت فى الحديث، وكانت الخطة المرسومة أن يكون فى رفقة والدنا أحدهما وخادم، وصح العزم على أن أكون أنا رفيقه فى الحج، وتملكنى الفرح لهذا التوفيق فى تحقيق رغبة ملحة استولت على خاطرى منذ قرأت « حياة محمد » و « فى منزل الوحي »، وغيرهما من كتب السيرة، ومع أنى كنت صادق العزم على الحج والزيارة قبل هذه المصادفة، ولكنى لم أتوقع هذا الحد من القرب، فأنا رجل أعيش وحدى مع أولادى الصغار فى ديار لا قرابة لى فيها ولا نسب، ولست بمستطيع أن أنقلهم أثناء غيابى إلى قريتنا، فمنهم من لا ينبغى أن أقطع سير دراسته كما أنى غير قادر على أن أنقل إليهم بعض أهلى، ولديهم مصالحهم وأولادهم، وليس من الهين أن أتركهم وحدهم فى هذه البلاد. ثم أنا فى فصل الشتاء ولست آمن برودة الجو فى الطريق. ولو أننا فى فصل الصيف وكانت أراضى الحجاز على غير خط عرضها لما كان هناك محل لمرور هذه الخواطر، ولكننا فى فصل الشتاء حيث البرد الشديد وحيث الموسم الدراسى فى إبانة.

كانت هذه الظروف تجعل التفكير فى السفر مستبعدا بالنسبة لى، مع ما بى من شوق ولهفة الى أداء هذه الفريضة، فلما واثت الفرصة شملنى سرور بالغ، وقلت لنفسى إذا كان ما يشغلنى هو

أولادى فما غيبتى إلا شهر واحد يحتملونها فيه واحتملها وهم
لا هون بمدارسهم ومعهم والدتهم تلاحظهم فى أعمالهم والله
يرعاهم بفضله ويكلؤهم بعنايته ، وأما عن الجو هناك فلا شك أن
موقع الحجاز يجعله دافئاً ان لم يكن شديد الدفء ، ومع ذلك فإن
قليلاً من الحبيطة قد يمنع الأذى ، وهأنذا فى عملى قد تحملنى
الحوادث على قضاء ليل كامل فى شتاء المنصورة خارج منزلى
أحقق فى احدى القضايا وأجوس من أجلها المزارع والطرق
فى جو البرد الشديد والضبب الكثيف ، فهلا أحتمل شيئاً من
ذلك فى سبيل أداء فريضة الله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى؟

أفلا أحتمل شيئاً فى سبيل أن أزور رسول الله وأمثل أمام
حجرته الشريفة ، وأقف حيث وقف وأصلى حيث صلى وأنا
فى هذا وذاك أرى مهبط الوحي الذى نزل فيه القرآن هدى ورحمة
للعالمين ! وفوق هذا فهى رحلة واجبة على كل مسلم هياها الله
لى وأخلانى من تبعاتها .

عدت الى المنصورة ومعى نفقات السفر لإعداد جوازاته
فلما وصلتها كنت جدلاً طروباً ، فسألتنى شريكى ما عنك فقصصت
الأمـر عليها ، فسمعتـه وظنتـه من قبيل التفاؤل والتمنى ، فلم تحسبه
جداً إلا بعد أن أكدته لها وأطلعتها على ما حماته من معداته .
وقضينا ليلة كاملة نتحدث فيها بفضل الله وسابغ نعمته التى

كتبتهالى ، ووددت أن ترافقنى لولا أن حالة الأطفال لا تسمح
بغيا بنا معاً مدة طويلة فى وقت واحد فعاهدتها على أن أهيم لها
سفرأ فى العام التالى إن شاء الله .

لم يماورنا أى شك ولم تشب فكرتنا أية شائبة ، فقد كان
كل ما ارتسم فى ذهنى من صور يشجعنى على أداء هذا الواجب
ويحفزنى الى المسارعة اليه فى رحلة جميلة إلى بلاد مقدسة ، ثم
شجعنى أيضاً انى مسافر فى الواقع إلى قطر شقيق والبلاد التى
أنا راحل اليها بلاد عربية وأهلها يمتون اليـنا بأواشج القربى
والجوار ، والباخرة التى ستنقلنى إلى تلك البلاد هى دار مصرية
شرقية بكل ما لها تين الكلمتين من معان ، ثم إننى سأجد مصريين
وشرقيين فى كل بقعة من أرض الحجاز ، وسأجد فى كل بلدة
من بلاده دياراً مصرية حقاً . اليست لنا سفارة فى جدة وفندق
ومصرف يخفق عليهما علم مصر ، ومثلما فى مكة المكرمة ؟
ومثلما فى المدينة المنورة : سفارة وتكية مصرية يقوم عليهما
مصريون ، وأحسست حقاً اننى سأكون فى كل مرحلة كأنتى
فى الديار المصرية .

وقد علمت أيضاً أن على بلاد الحجاز أهلاً يأنس الحجاج
اليه ، ويرون فى وجوده خير ضمان لأراحتهم وأمنهم وطمأنينتهم
وعلمت أيضاً أن بالديار كل ما يحتاج اليه الرجل من ضروريات

وكاليات . لذلك كنت كبير الثقة بأنى سألقى الراحة التى أنشدها
إلا بعض مشقة يسيرة لا يخلو منها سفر ، وإلا بعض توضحيات
لا يكاد الانسان يتخلص منها فى أى رحلة ، ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء .

ان فى كتابى هيكل باشا (١) ، وأعمال طلعت باشا (٢) الخالدة
ما يبعث النفس على الاسراع الى أداء هذه الفريضة ، فلقد وصل
أولهما إلى أعماق النفوس فزادها ايمانا وحرك هذا الايمان كامن
الشوق إلى الحج والزيارة ، وسهل ثانيهما بعمله سبيلها .
ولقد كان الناس قديما يسافرون الى هذه الربوع لأداء
الفريضة فى رحلة يتعرضون فيها لكل المتاعب والأخطار
يقضون فيها الشهور ، ويستودعون الله أولادهم وآلهم وهم يغلبون
الظن ألا يعودوا ، وكان أهلهم يقدرّون هذا ، فكنت ترى
الدموع الغزار منهم فى حفلات الوداع ، وكانوا وهم يمتطون
الجمال ويحملون الزاد كأنما يلتقلون من العمران الى نقيضه ،
ومع ذلك لم تكن تمنعهم هذه المصاعب من الحج ايماننا بالله
وشوقا الى رسول الله ، فإبانا وقد هان السفر وانتشرت ظلال
الآمن وقصرت الشقة وقلت الكلفة لا نسارع الى التزود من
هذا المتاع الذى له فى الحياة الدنيا لذة وفى الآخرة جزاء عظيم ؟

(١) كتاب فى منزل الوحى وحياة محمد

(٢) طلعت حرب باشا مدير بنك مصر اذ ذاك وزعيم النهضة الصناعية والاقتصادية .

يَوْمُ السَّفَرِ

اتفقت كلمتنا على أن نسافر في الثلاثين من شهر يناير، وأن ننقلنا الباخرة المصرية « زمزم »، إحدى بواخر الملاحة التي أنشأها بنك مصر، وأعددتنا متاعنا ولباسنا وما قد يحتاج إليه المرء من لوازمه الخاصة والإسعافات التي قد تعوزه ويتعذر عليه إيجادها في الطريق. فلما كان اليوم الذي سنسافر في غده جالس معنا بعض أصدقائنا قليلا من الليل ثم انصرفوا، لأنهم - كما قالوا - إنما يخلوننا الوقت الذي نجتمع فيه إلى أهلنا وأولادنا يتزود كل منا بنظرة طويلة من سواه، فمن يدري إن كان في سجل الأيام واللوح المحفوظ ملاقة أخرى بعد هذا الفراق أم لا !

لقد أحدثت هذه العبارات أثرا عميقا في نفوسنا، وبدأنا نشعر باحساس غريب، لا كالذي يشعر به المرء عادة قبيل كل سفر. ولست أدري سبب هذا الاحساس. فان ظروفنا كثيرة قد ألزمتنا مفارقة أهلنا وأولادنا وأقاربنا مددًا زادت أحيانا على الشهر، وما شعرنا قبل اليوم بما نشعر به الآن. فنحن في شوق شديد إلى ارتياد هذه الرحلة نستنجز بها ركنًا من أركان الاسلام. وهؤلاء أهلنا والناس من حولنا يغطوننا على ما نحن راحلون إليه في سبيل الله. ولكننا أيضا في شوق إلى آلتنا

وهم مشفقون علينا . وهذان النوعان من الشوق والاشفاق
اختلفا واختلطا ثم امتزجا في نفوسنا حاسة غريبة ليس في قدرة
يراعى أن يترجمها ، ولا في طوق خيالي أن يصورها أو يعبر عنها .
حافز الى السفر ، واشفاق من الرحيل ، وهذا وذاك أمران
ليس من أحدهما بد . ولعل سبب هذا الشعور ما سبق أن
قلته عما عرف عن متاعب السفر إلى الحجاز في الزمن الماضي
حتى رسخت في الأذهان آثار هذه المتاعب ولم يستطع الاعلان
ولا البرهان محوها وإن كان قد خففها ، فلا يزال الناس
يتصورون أن الحج شهور طويلة يقضيها المسافر حتى يفرغ
من أداء فريضته ، تحيط بها أنواع المخاوف والأمراض . أما اليوم
فانك تجد كل شيء إلا الخوف والمرض . تجد الأمن والطب ، وتجد
من الحاجات ما قد لا تعثر عليه في بعض بلاد القطار المصري
نفسه ، أما اليوم فانك تجد راحة في السفر ، وميسرة في الإقامة
ومع ذلك فان الرحلة لا تستغرق بضعة أسابيع لا تتجاوز الخمسة
مهما طالت . فليس هناك في الواقع محل لهذا الاحساس المختلط
والكنها غريزة النفس والخوف على الحياة وضعف المقاومة
والميل الى الهدوء ، وهو في الواقع احساس تحس به كل صباح
ومساء إذا خرجت من منزلك أو عدت اليه والكر . بشكل
غير ظاهر .

وخرج الأصـدقاء ، وجاء الآل والأبناء وجلست ابنتي الصغيرة إلى جانبي تحديق بصرها في وجهي ، وتصوب عينها إلى عيني وهي تتأمل في رأسي طويلا ، ثم قالت بسذاجة الطفولة وسهولة الفطرة : أفلا تبيت معنا الليلة القادمة ؟ وهل ستكون بعيدا عنا فلا نراك غدا ؟ لا تغب عنا طويلا يا والدي . وقالت اختها الكبرى سننتظرك كل يوم رسالة ، وقد أودعنا في حافظتك كثيرا من الأوراق والأقلام ، فاكتب إلينا كل يوم كتابا أذكر لنا فيه جميع ما تعمله في ذلك اليوم ، واذكر لنا كيف تنام وكيف تأكل ، ومع من تعيش ، ومن رفاقك الذين تلاقيت بهم وتعرفت اليهم ، وصف لنا الباخرة التي ستسافر فيها ، والجو الذي تسافر فيه والاحساس الذي تشعر به عند مغادرة السويس ، وصور لنا كل ما تراه ، وقال أخي : لا تنس أيضا أن تصف لنا جدة ومكة وعرفات والمزدلفة ومنى والمدينة والطرق الموصلة بينها ، والأماكن التي تراها في هذه الطرق ، وان استطعت فاكتب لنا شيئا عن عادات أهل تلك البلاد وطريقة معيشتهم وأحوالهم . واجعل وصفك شاملا لما قد تراه من طرائق المعيشة في الطبقات جميعا . وقد أدهشني هذا الطلب وأثار اعتراضى وقلت لهم : لئن أردتم وصفا جغرافيا فما هي كتب الجغرافيا بين أيديكم ، وإن أردتم وصفا صوفيا فما هي كتب

الدين في متناولكم ، وان أردتم بين هذا وذاك فأمامكم كتاب
في منزل الوحي ، فقد وصف الأمر الواقع في روح عالية
من اللغة والأدب ، وسحر روي واسع وشرح طويل . فقالوا
إن كتاب هيكل باشا هو على ما وصفت ، وهو فوق ذلك مكتوب
عن الطبقة العليا من الناس للطبقة العليا من الأدباء والقراء .
كما أن كتب الجغرافيا إنما هي كتب واصفة لا مرشدة ، وإنما
نطلب وصفاً يستطيع المرء اذا قرأه أن يدركه ، وإذا أدركه استرشد
به وتتبع خطاه ، ويكون في الوقت نفسه في متناول المتوسطين
من آلاف الحجاج المصريين إدراكاً ، فهم إذا وضع لهم وصف
يتفق مع حالتهم أمكنهم أن يسيروا على هداه .

وقد أعجبتني الفكرة فعاهدتهم وعاهدت نفسي على أن أضع
عن مشاهداتي مذكرات تكون أساساً لعرض هذا الموضوع .
جاء الصباح وانصرفنا بطريق البر إلى السويس وتوجهنا
إلى الميناء وتخیرنا الغرفة التي سناوى إليها حيث وضعنا متاعنا
ثم توجهنا إلى استراحة الباخرة وجلسنا فيها ، وقد كان الزحام
في الميناء بالغاً أشده لكثرة المسافرين والمودعين ، وكان بينهم
كثير من رجال البوليس ، بعضهم ذهب إلى الميناء كعادته
وبعضهم ذهب لتحية وزيرين كان أولهما يودع حرمه والثاني
يودع والده ، والطبيعة لا تطاوع أحداً ولا تخضع لسلطان أحد
ولا ترعى الجماهير ولا ترهب الزحام ، فقد تلبدت السماء بالغيوم

ثم انهمر المطر مدرارا فلم يجامل ولم يدار، واستبشر الناس بالمطر
فألا جيلا في السفر، ذلك هو الغيث المهر. وظللنا
في الاستراحة تتجاذب الأحاديث من مودعينا حتى دق الجرس
ونادى المنادى لغير المسافرين أن يغادروا الباخرة، لأنها على
وشك الرحيل. وقد رجونا أن يجيئوا نداء المنادى فنزل
منهم من أطاع ولكن أخوى تباطأ في النزول متلبسين الأعذار
متعللين بأن هذا هو التلبيه الأول، وأن كثيرا من المودعين
الآخرين لا يزالون جلوساً بالباخرة، بل إن بعض أمتعة الركاب
لا تزال على الرصيف، والحمالون يرفعونها، ولا يزال في الوقت
متسع. وما كان لهذه الأعذار في ذاتها شيء من الوجاهة، بل هي
منتحلة والحقيقة في أمرها إطالة البقاء معنا كل ما استطاع، وكان
هذا يتفق مع رغبتنا، ولكن لا بد مما ليس منه بد. وهكذا
لم ينزلا إلا بعد اقناع طويل وعناق وتقبيل صاحبهما
بكاء ودموع.

وغادر الجميع الباخرة ووقفوا على الرصيف ووقفنا على سطح
الباخرة ننظر إليهم وينظرون إلينا، نلوح لهم ويلوحون لنا،
ويحيوننا ونحييهم حتى تحركت الباخرة فأخرجنا المناديل
نتبادل الإشارات بعد أن بعدت الأيدي، ولم يحل بيننا وبينهم
ذلك المطر الغزير الذي غمر جميع الواقفين زمنا كبيرا، فلم نهرب

منه ، وهكذا استمرت هذه الاشارات حتى استحالت رؤيتنا
وغاب كل منا عن الأنظار .

ثم انصرفنا للطواف في انحاء الباخرة نستكشف أمرها
ونتعرف إلى سكانها ، وكان أول من تلاقينا معهم ثلاثة من رجال
المحاكم تعرفنا إليهم ، فكان الأمر موضع العجب وقلت لهم
من فرط سرورى بلقاءهم : هل كتب على أن أعيش دائما
في المحاكم حتى فى رحلتى إلى الحجاز ، ولست أخفى اننى شعرت
نحوهم بمحبة سريعة ، وألفة كأنها ألفة السنين مع اننا لم يسبق
لنا تلاق ، فهل كان السبب أننا غرباء جميعا وكل غريب للغريب
نسيب ؟ لكن الباخرة ملاءى بالغرباء ، فلماذا اختص الائتلاف
والحب رجال المحاكم ، أم أن للزمالة ووحدة الدراسة أثرها
فى إيجاد الجاذبية بين العمل الواحد الذى يحبونه ويعشقونه ،
ولعل هذا هو السبب الوحيد فى الائتلاف السريع .

وسرنا جميعا وطفنا بالباخرة ، وشاهدنا مسجدها وغرف
الطعام فيها واستراحتها ومستشفاهها وصيدليتها ، وزرنا طبيبيتها
« رشدى وشكرى ، وصالون الخلافة فيها ، فكانت مدينة كبيرة
فى باخرة ، كل غرفة فيها منزل صغير مجهز بالفراش والنور والماء ،
وقد يغنيك عن طول الوصف أن تعلم أن فيها كل ما يلزمك
وما تشتهي ، وعلى رأسها مدير رقيق المشاعر حريص على راحة

المسافرين ، مسارع إلى اجابة مطالبهم وسد حاجتهم . ولقد لقي
الركاب من رعاية طبيبها ما يلقونه من رعاية الطبيب الخاص
فضلا عن أن الادوية تصرف للمرضى بغير مقابل . ثم جلسنا
نتحدث فيما نحن فيه وما سنكون فيه وقد صحا الجو ومالت
الشمس للغروب واختال احمرار الشفق بزرقه ماء البحر
والباخرة تسيرين هذا الشعاع البهيج والمنظر الجميل الذي يحلو
للشعراء وصفه والابداع فيه .

في عرض البحر من السويس إلى جدة

كان مقررا أن نصل إلى جدة بعد ثلاث ليال نقضيها في عرض البحر، ولكننا علمنا أن إدارة الباخرة قررت الإسراع بنا واختصار الوقت ليلة كاملة لنصل إلى جدة في اليوم الأول من شهر فبراير. فأتاح لنا ذلك أن نقضي زمنا نستمتع فيه بذلك المنظر البهيج، منظر الشمس وشيك مغيبها تبسط شعاعا ذهبيا على ماء البحر فتجعل منه ذهباً يتأرجح ويتماوج متشكلا تارة بلون الشفق وتارة بلون الشمس إذا ألقت نضارها لتترك الأحياء مهورين بسحره وجماله. وقد زاد في بهائه ذلك التدرج المنتظم في انسحاب الشمس تحت السحاب يطويها في ردائه حتى يغيبها عن الانظار، ولو أنك لاحظتها وهي تبتعد رويدا رويدا تغمرك الرغبة في بقائها، وتزداد هي دلالا وانسحابا وأردت أن تنظم شعرا في وصف هذا المنظر فما أبدع القصيدة التي تصور هذا الجمال، جمال الطبيعة في صفوها، وكل شيء فيها ينطق بقدره الخالق العظيم جل شأنه وتعالى سماؤه وصفاته.

وهرعنا مبكرين إلى حجراتنا لنستريح من عناء ما بذلنا من الجهد في يوم السفر، واستيقظنا قبل فجر اليوم الحادي والثلاثين من شهر يناير فوجدنا أكثر الركاب وقد قاموا يستعدون للصلاة

يبادلونك التحية أينما وجدوا كأنما ربطت بيدك وبينهم أو اصر
الصلوات العتيدة . وكان الجو بارداً لم يسمح لنا بالارتياض
على سطح الباخرة فجلسنا في استراحتها نتجاذب أطراف
الاحاديث إلى أن جاء وقت الإفطار فتناولناه ، وكان النهار قد
نشر دفاؤه وضياؤه ، فأخذنا نتنزه وننتقل من مكان إلى مكان .
وكننت قد ظننت قبل سفرى أننى سأجد من وقى ما أنفقه
في المطالعة فحملت معى كثيراً من الكتب ، ولكن تبين
لى أن المشاهد التى كانت تتجدد كل لحظة لم تدع للقراءة سبيلا
وكان بين المسافرين جماعة أدوا فريضتهم قبل هذا العام فأخذوا
يصفون لنا البلاد ، فحدثونا كثيراً عنها . أنست إلى واحد
منهم فسألته عن سبب عودته إلى الحجاز مادام قد أدى الفريضة
فسكت وقال : إني أفضل أن تسألنى هذا السؤال عند رجوعنا
إن شاء الله سالمين ، وإني لعلى ثقة أنك حينئذ ستعزم العودة
مرارا . وقال لى صديق آخر : حججت فى العام الماضى ، وكننت
توافا الى الحج مرة أخرى ، ولكنى لم أعقد العزم ، اذ الموظفون
لا يملكون أوقاتهم ، وقد لا توافق الحكومة على إجازة أخرى
خارج القطر اذا لم تسمح حالة العمل بذلك ، ولكنى ما كدت
أقرب من موسم الحج حتى اشتعل قايى ولعاً بالطواف حول
الكعبة والوقوف على قبر الرسول الكريم الأمين ، أناجى
حضرتة فى خلوته ، واستمتع بهذا المشهد الحبيب الى نفسى

فسارعت في إعداد ما يلزمي من المال وذهبت إلى رؤسائي فاستأذنتهم ، وكنت مدفوعا بحافز غريب : كنت كلما رأيت أحدا يستحضر جواز السفر دب في نفسي ديب الغيرة واللهفة وقال تاجر : إن هذه هي السنة الثالثة عشرة من السنين التي مضت ولم أتخلف فيها عن الحج عاما واحدا ، فقد بدأت تجارتني رقيق الحال ونذرت للرحمن أن أحج بيته إن توفرت لدى نقود أنفق منها على نفسي وأتصدق منها على الفقراء ، وما مضى عامان إلا وكان المبلغ في يدي فأوفيت نذري وأديت الفريضة ، فلما عدت إلى مصر وثابرت على عملي زاد مالي ، فذكرت قول الله تعالى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » وإنما يزكي المال بالصدقات . فاعتزمت أن استديم رحلاتي إلى الحجاز مادمت حيا أنفق في سبيل الله من فضل الله ، وكلما تكررت حجي تضاعف كسبي حتى صرت أملك بضعة آلاف من الجنيهات من تجارة بدأتها ببضع مئات من القروش . وقد وفقني ربي ، فما أخلفت هذا العهد والميثاق . فعقب على ذلك الحاج الذي سأله أولا قائلا : ليس لي بعد ما سمعت أن أزيد شيئا فإن جاذبية روحية ستجس أنها تدفعك إلى العودة ، وإنه لخير لمن يسافرون خارج القطر أن يجعلوا أسفارهم إلى بلاد الحجاز يؤدون فريضة عليهم ، ويفيدون أهل بلاده ويتمتعون مع ذلك بمناظر طبيعية غاية في الجمال .

وجاء الظهر وموعد تناول الغداء فتناولناه ثم ذهبنا نستريح قليلا ثم تنصرف إلى الحمامات للاستعداد للإحرام فنصل إلى رابغ قبل المغرب وهي المكان الذي يجب الإحرام عنده لمن يقصد مكة، فمن أراد أن يبدأ بزيارة المدينة المنورة فانما يؤجل إحرامه حتى يعود منها فيحرم في طريقه إلى مكة من ميقات أهل المدينة. وقد صرفنا قبل راحتنا وقتا طويلا جلسنا فيه إلى أحد العلماء فجعل يحدثنا عن الحج وفرضه وحكمته، وعن الإحرام وواجباته ومنوعاته، وكان حديثه طيبا، وكانت آذانه واعية فعلى رغم أن كثيرا مما قاله كان في مذكراتنا إلا أن الحديث عن الحج يحلو خصوصا في طريق السفر إلى أداء الفريضة قال تعالى : والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . وسئل النبي عليه الصلاة والسلام : أى الأعمال أفضل قال إيمان بالله ورسوله ، قيل ثم ماذا قال جهاد فى سبيل الله قيل ثم ماذا قال حج مبرور . وقال أيضا أفضل الجهاد حج مبرور وقال سيدنا عمر : شدوا الرحال فى الحج فإنه أحد الجهادين ، واستمر العالم فى محاضراته فذكر أن شروط الإحرام الغسل بنية وإزالة الشعر وتقليم الأظفار وقص الشارب ولبس الرداء على الكتفين وكشف الرأس ولبس حذاء خاص فى القدمين . ومتى نويت الإحرام فالتزم حدود قوله تعالى : الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج .

ولاطيب ولا نساء ولا غيط ولا محيط من الثياب . وبعد أن انتهى
العالم من محاضراته تقدم اليه كثيرون يستفسرون منه عن بعض
التفاصيل فكان يجيبهم عما يسألون ، وشرطهم متى وكيف يكون
الفداء والهدى وما يجب على الحاج عند العجز عن الإحرام .
ها نحن قبيل المغرب ، وهذا موعد الإحرام ، وحين ذهبت
الى استراحة الباخرة وجدت بها غاصة بالحجاج وهم جدلون فرحون
يذكرون الله ويسبحون بحمده فما رأوني حتى أقاموا عاصفة
من التهليل والتكبير هي تحية المحرمين بعضهم لبعض يستعيضون
بها عن السلام وهي : « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك
لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، فاذا
أقبلت عليهم أو أقبلوا عليك فهذه تحيتك وتحيتهم . وهكذا
يرددون هذه التلبية كلما أقدم عليهم قادم أو سار من بينهم أحد
لا يعرفون في هذا الوقت غير التلبية لله صاحب العزة والجلال .
وقضينا ليلة ساهرة ممتعة نستمع الى الاحاديث حيناً
والى خربير الماء حيناً آخر حتى جاء موعد النوم فقمنا ، ولما
تنفس الصبح صعدنا الى سطح الباخرة ننظر الى جدة علنا نراها
من بعيد . وتقابلت صدفة مع قبطان الباخرة فحيانى على غير
معرفة ، ورددت تحيته بالانجليزية وأقبل على يحدثنى ووقفنا قرب
باب الباخرة الذى سينزل منه المسافرون وجعل يقارن بين
هدوء البحر الاحمر وأمواج البحر الأبيض وبين الطريق

إلى الحجاز والطريق إلى أوروبا وإحساس المسافر إلى مكة
والمسافر إلى مرسيليا . وقال لي أنه لاحظ أن الفكرة التي
تسيطر على المرء في سفره تغير من حالته حتى لا كاد أعتقد أنها
تغير من مسلكه ، ولذلك نجد المسافرين إلى الحجاز رجلا واحدا
وروحا واحدة ونفسا واحدة وجماعة وجماعا ، كلهم رضى
مسرور ، أما المسافرون إلى مرسيليا فلكل منهم شأن يغنيه ،
فلا تجمعهم غير صداقة البعض منهم ببعض ، وإنك لتجد بينهم
الفرح والعباس والمسرور والحزون والراضى والغاضب كل
يتأثر بمشاعله وأهوائه الخاصة ، وانتقلنا إلى الحديث عن أخلاق
المصريين فأخذ يمجدها ، وعن عاداتهم فأخذ يحسنها فشكرته
وذكرت له أنى أعتبر ما جرى على لسانه مجاملة لمصرى في أهله ،
ورجوته أن يشرح لى ما يعرفه عنا لعنا نستفيد من نقده ، فأكد
لى بلسان الواثق الطيب القلب أنه يعنى ما يقول ، وأنه يقول الحق
فرددت له التحية ووجهت له شكر المصريين وذكرت له ما يمجدهونه
من صفاتهم وأخلاقهم ، ثم استأذنته وانصرفت لا تريض
فى الباخرة ، حتى التقيت بمديرها المسمى بك ، والتقى بى مع
جماعة من الحجيج فشكرنا له ما لقينا من عنايته وعناية شركته
براحتنا أثناء السفر ، وكانت الساعة العاشرة قد اقتربت وبدأت
الاجدة والبواخر الواقفة فى عرض البحر ، وشهدنا هياكل
لباخره كانت قد احترقت وبقي حطامها وهالنا هذا المنظر وأخذ

منا الملح أن تصورنا أنها احترقت وفي جوفها آبله وأولاد ،
وشيب وغلان ، لم يجسروا طم مفراً من الموت وهم قلب نوسين
لو أدنى من بلاد الرسول ، وطماننا أحد الركاب إلى أنها احترقت
وهي خالية من الرواد ، فصرى عن نفوسنا ، ووقفت الباخرة
بعيدة عن جدة ، وسررنا لمنظرها فإنك أترأها على شاطئ البحر
كالبيوت المتناثرة يكسبها البحر من جماله جمالا ، وتكسبه من
وجودها بهاء ، وأن أكثر المناظر سحراً جمال البحر في اتصاله
بالبر ، ولا تدرك بهاء للمنازل أجمل من بهائها على شواطئ
البحار والأنهار . ونزلنا من الباخرة الى زورق يقلنا الى الميناء ،
ذلك أن ميناء جدة غير معدة لرسو البواخر ، ولا أنكروا عليك
أن الانتقال من السفينة بالزوارق الى الميناء مشعب حفا ، وقد
يتعرض فيه المرء لبعض ما لا يحب ، وقد حدث أن جلس قاضي
مصرى فى زورق واحتك به جانب زورق آخر فجرحت يده
وهرس أصبعه ، وظل طوال مدة الحج يعالج يده ، وإنك لتصور
أكبر العناء إذا أدركت ان حمولة السفينة ثمانمائة وألف راكب
بأمتعتهم وأصحاب الزوارق يتنافسون فى الاقتراب من الباخرة .
وقد حدث أن وضع متاعى شتلاً فى زورقين غير ماركبته
ووصلت إلى الميناء بدونه وظللت فى انتظاره مدة طويلة ، وهذا
اقترح أن تنشئ حكومة الحجاز ميناء ترسو أمامه السفن فى مكان
صالح أو تعمل وصلة برية بلسان داخل البحر يثقل الركاب

من طريقها كهذه الوصلات البرية الموجودة في الظروف . نعم ان
الحجاز في حاجة الى اصلاحات أخرى وتلك بدورها محتاجة الى
المال ، ولكن غناية الحكومة من جهة ومعاونة الدول الاسلامية
كذلك من جهة أخرى كفيلا ان يانجاز الاصلاح في وقت قصير .
ولما وصلت الى أمتعتي وجرت عليهما مراسم الجمر ك غادرت ،
والهيئة بين آلاف من مختلفي الجنسية : هنود وجاويين ومغاربة
ودول أخرى أقلتهم البواخر الراحية فذكرت قوله تعالى
« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين
من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام
معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا
البائس الفقير ثم ليقضوا نفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا
بالبيت العتيق » ولما غادرت الباخرة نزلات في فندق جدة .

في جدة

كان الوقت ظهراً عند ما وصلنا إلى ميناء جدة - وإن شئت
فقل ميناء مكة - وكان الجو حاراً يماثل جو مصر في مايو، وكنا
نحمل ملابس الشتاء إذ لم يكن في الظن أو التقدير أن يكون
الفرق هكذا شاسعاً، وأن يكون الجو هكذا حاراً، ونحن
في اليوم الأول من شهر فبراير .

الله أكبر ! ليك اللهم ليك :

وصلنا إلى جدة ، ولا تزال ألسنتنا تنطق مترجمة عما يملأ
نفوسنا من السرور والمرح بالتهليل والتكبير ، ولم يشغلنا
عن ذلك انتقالنا من الباخرة إلى الزورق ، ولا البحث عن أمتعنا
وانتظار وصولها إلى الميناء ، ولا مقابلة وكيل المطوفين واتخاذ
المراسم الجمرية .

ومرفأ جدة هو مدخل بلاد العرب من ساحل البحر الأحمر
وهو طريق الوصول إلى مكة مسقط رأس النبي العربي الكريم
الذي أرسل للناس كافة هدى ورحمة ، ومبعث النهضة العربية
القديمة ، ومهبط الوحي في بدايته .

تلك هي بلاد العرب التي سيطرت زمناً ما على ملك واسع

الأطراف بعيد الأكناف ، والتي نشأت فيها الأمة العربية أقدم الأمم على الزمان وأعرقها على الأيام وأطولها خلودا ، وأوسع سلطانا ، وأسعدها حظا وأشدّها تمسكا بالرجولة ، واستمسكا بالبطولة ، وأصلبها عودا وأقدرها على الصبر ، واحتمال الأحداث .

تلك الأمة التي لم يخلد أهلها إلى النعيم ، ولم يتعلقوا بأهذاب المدينية ، هؤلاء الرجال المتزهدون في طعامهم المتقشفون في لباسهم ، الذين لم يعنهم من الدنيا غير الله والحق والتقوى بذلوا أرواحهم رخيصة ، وسكبوا دماءهم كريمة في سبيل المحافظة على الشرف والكرامة ، وإعلاء كلمة الحق والدين .

الأمة العربية التي من قبائلها قريش والتي نشأ في ربوعها عبد المطلب بن هاشم والد عبد الله وجد رسول الله الذي حكم في مكة تسعة وخمسين عاما رفع فيها شأنها وضد عنها الغوادي حتى كان عام الفيل ورسول أبرهة ، لنفسه أن يفزو مكة وأن يهدم البيت العتيق فجعل الله كيده في تضليل وأرسل عليه وعلى جذده طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كول .. فعاد أبرهة ، أدراجه مع ما بقي من جيشه ولم يعيش بعد ذلك .

وهكذا كان عام ٥٧٠ م عاما مباركا ، هزم الله فيه جيش

الحبشة وأبادهم مع فيلتهم ، وكان عاما مباركا ولد فيه محمد عليه الصلاة والسلام .

بلاد العرب مبعث المعجزات المحوطة بالأسرار الناطقة
بقدره الخالق الواحد القهار ، يهبط إليها كل عام سبعون ألفا
أو يزيدون يحجون بيت الله ، ويؤازرون ثلاثه ملايين من الانفس
لا عيش لهم إلا ما يكسبونه في موسم الحج ، تلك البلاد التي
هاجر إليها ابراهيم بزوجه وابنه اسماعيل وترك اسماعيل مع
أمه وليس معها من حطام الدنيا سوى دعاء صالح من نبي صالح
لإله قادر « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند
بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى
اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إناك تعلم
ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شئ . فى الارض ولا فى السماء
الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربى
لسميع الدعاء »

هذا هو الدعاء الذى خلفه ابراهيم لولده اسماعيل وزوجه
هاجر ، وهذا هو الدعاء الذى استجابه ربه فجعل الحج
من أسباب الرزق لهؤلاء الأبرار ولمن جاورهم من عباده
وهذا هو الذى كان من آثاره عمران تلك البقاع الطاهرة .

نحن اذن فى مدخل البلاد المقدسة ، فجدة بلد مبارك ، لأنه
السييل إلى هذه البلاد .

وينحيل إلى أن ثغر جدة لم يتغير فيه شيء من حيث شكله من زمن بعيد ، فإن ما كتب عنها من سنة ١٨٩٦ لا يكاد يختلف عما شاهدته فيها ^(١) فهي في وصفها بلدة تقع على البحر الأحمر تحيط بها الاسوار من كل ناحية ، متوسطة الحجم مؤلفة من عدة منازل يبلغ ارتفاع بعضها خمس طبقات على شوارع متعددة لا هي بالضيقة ولا بالواسعة ، وكل شوارعها أرضية معتنى ببعض الشيء بنظافتها ، فيها المدارس والمتاجر المختلفة : شارع التجارة فيها أشبه بعض الشبه بشارع الغورية بالقاهرة كما أن شكل المنازل في مظهرها يشبه منازل ذلك الشارع من حيث بنائها ونوافذها ، بها مقاه كالمقاهى البلدية الكائنة بالاحياء العريضة بالقاهرة تتشابه معها في الأثاثات وأنواع المشروبات التي تقدم فيها ، والاضاءة فيها ضعيفة وتوجد بها أنابيب للمياه وليس بها تيار كهربائي .

وقد يهملك من ذلك كله أن تعرف أنها بلدة كبيرة بها تجارة واسعة وبها كل ما تحتاج إليه من طعام وشراب ودواء ولباس . ولا يهملك أن تعلم ان كان بها ثلاثة آلاف منزل

(١)راجع في ذلك ما كتبه محمد باشا صادق سنة ١٨٩١ و ابراهيم باشا وفعت سنة ١٩٢٥ وسيد بك البتانونى سنة ١٩١٠ في دليل الحج ، ودمرآة الحرمين ، و الرحلة الحجازية ، على التوالي .

كما ذكر صادق باشا . أو ثلاثة آلاف وثلاثمائة كما ذكر رفعت باشا
أو ثلاثة آلاف وخمسمائة كما ذكر البتانوني بك .

وإذا نزلت إلى جدة فلك أن تستريح في أحد فنادقها
أو أحد منازلها ، ففيها فندق للحكومة وآخر لبنك مصر ، وهي
تعرف الفنادق من زمن بعيد ، ولذلك أدهشني ما كتبه الأستاذ
عبد القادر المازني في رحلته إذ قال : إنه ليس في جدة فنادق
ينزل إليها القاصدون ، وإنما ينزل الناس في بيوت الأهالي فمن شاء
استأجر منزلا بأسره ، ومن كان لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة .
فالواقع أن الفنادق بجدة قديمة وموجودة قبل رحلة الأستاذ
المازني ، ولعله وقد كان ضيفا على الحكومة لم يكن يعنيه كثيرا
أن يبحث عن الفنادق .

ويؤكد وجود الفنادق في جدة قبل وبعد رحلة المازني
ما كتبه محمد صادق باشا في كتابه « دليل الحاج » سنة ١٨٩٦
فقد قال : « بجدة خمسة جوامع سوى ثلاثين زاوية ومحاريبها
منحرفة من الشرق إلى الشمال بثلاثين درجة ، ووابور طحين
و ٣٠ خانا ولوكاندتان ومكاتب تلغراف . . . »

كما أن رفعت باشا ذكر أن « بها حماما واحدا ونزلين
« لوكاندتين ، وأربعين قهوة وصيدلية . » وقد أشار لبيب بك
البتانوني أيضا إلى وجود فندق بجدة .

ولكى أقرب إلى الذهن شكل جدة لا بأس أن أشير إلى ما كتبه عنها لبيب بك البتانوني في الصحيفة السادسة ، من رحلته الحجازية إذ قال: إن منازل جدة مبنية بالحجر الجبلى الذى يستخرجونه من الجبال القريبة أو الحجر المائى الذى يقطعونه من شعاب البحر. ومساكنها كمساكن مدن الحجاز مكة والمدينة، ومى أشبه بمساكن مصر فى عهد المماليك ، وفى سوق السلاح كثير منها ، يعنى أن بها غرفا كبيرة ولواوين واسعة ذات سقوف عالية ونوافذ طويلة عريضة على شكل المشرييات يسمونها الروشن ، أى المناور ، ومصاريع نوافذها مصنوعة على غرار النوع المسمى ، الشيش ، الخ

وقد قال لبيب بك البتانوني إن شوارع جدة لا نظام فيها وأستطيع أن أقرر اليوم انها أكثر نظاما ، وأنها وإن لم تكن مرصوفة فإنها معتنى ببعض الشئ بنظافتها ، كما أن هناك بعض المباني الحديثة تماثل المباني المصرية فى الأحياء المصرية بالقاهرة ومن ضمن هذه المباني ما يشغله فندق مصر بجدة ، كما أن مبنى السفارة المصرية ليس من النوع العتيق .

كان علينا أن نسافر إلى مكة يوم أول فبراير الذى وصلنا فيه الى جدة ، والمسافة من جدة الى مكة بالسيارة لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات مهما طالت ، فلو أننا تحررنا من

جنة في الساعة الأولى بعد الظهر لوصلنا الى مكة في الساعة الرابعة ، وكان ذلك هو تقديرنا .

وقد قابلنا وكيل المطوفين وأعربنا له عن تلك الرغبة وطلبنا اليه إحضار سيارة تنقلنا ، ولكنه عرفنا أن ذلك لن يكون قبل الغروب ، لأن عليه أولاً أن يحضر الحاج المصريين الذين وصلوا ، ثم يذهب الى بنك مصر ليحاسبه على أجور السيارات قبل قيامها من السويس . وقد حاولنا أن نقنعه أن أجر السيارة ثابت التحصيل في جواز السفر ، ولكنه أبى أن يقتنع ، فلنصرفنا حتى يتمم إجراءاته ، وذهبنا الى الفندق فاسترحنا قليلاً ثم خرجنا نطوف جدة ونتعرف أحوالها وشؤونها وكان أول واجب في نظرنا أن نزور ديارنا المصرية هناك .

أرسلنا في طلب عربية نطوف بها المدينة ، فجاءتنا عربية مقفلة ومن نوع ما يسمى الكومبيل في العرف الدارج ، يجرها حصان واحد ، ضئيل الجسم هزيل تبدو عليه أمارات الجوع وركبتها مع صديق لي وتوجهنا فوراً الى دار السفارة المصرية .

وهي دار أنيقة ذات طابقين : الأول منهما يرتفع عن الأرض بضع درجات ، والثاني له سلم من صالة الطابق الأول ، ويوجد بالطابق الأول مكان موظفي السفارة وعيادة الطبيب المصري الملحق بها كما يوجد بالطابق الثاني مكتب القائم بأعمال السفير

وسكنه، ولم نجد الياس بك اسماعيل القائم بأعمال السفير إذ ذاك،
لأنه كان غائبا في مكة يستطلع أخبار من سبقنا من الحجاج،
ووجدنا موظفي السفارة قائمين بأعمالهم فأحسنوا استقبالنا وهم
جد فرحين مسرورين بلقاء أهلهم ومواطنيهم. وإنك لتستطيع
أن تتصور كم تلقى من السرور إذا تقابلت في بلاد الغربة بواحد
من أهل وطنك. وعلى قدر ما تتصور من الغبطة يمكنك أن
تدرك كيف قابلنا كل منهم وكيف عرض علينا خدماته ومعاونته
وقدموا لنا القهوة المصرية والماء المثلج فشكروناهم ثم استأذنا
في زيارة بنك مصر فأرشدونا إليه. وهو بناء أحدث من بناء
السفارة ومجاور لها، ويشغل الدور الأول من عمارة فندق بنك
مصر الذي تتوافر فيه كل وسائل الراحة، وقد استقبلنا موظفو
البنك بمثل ما استقبلنا به موظفو السفارة.

لقد كان سرورنا بالغاً، وكانت سعيدة تلك اللحظات التي
قضيناها في ديارنا وبين أهلنا في جده، وتلك آثار الجهود الجليلة
التي بذلتها الحكومة المصرية في إنشاء سفارة لنا فيها وآثار
الجهود القومية التي أقام بها بنك مصر فرعاً له وفندقاً
فيها. لم نكن غرباء إذن في بلاد الحجاز، ولم نشعر بالغربة يوماً
واحداً ولولا أعمال ومصالح وأرزاق تقتضينا سرعة العودة
إلى مصر لما شعرنا بوحشة أو حاجة إلى الرجوع السريع.

ركبنا عربتنا ثم طفنا حول المدينة من داخل أسوارها
التي تحجب منظر البحر عن الشوارع ، ولم يمنعنا الحر عن هذا
الطواف وقد روحنا به عن نفوسنا ، فالبلد «خفيفة الروح» على حد
هذا التعبير

ثم استوقفنا الحوذي عند أحد المقاهي ونقـدناه أجره
وانصرف وجاسنا وطلبنا الشاي «وهو الشراب الشائع هناك»
وطابنا بعض الماء لشربه وإذا بالندل ينادى زميله ويطلب لنا
شاي أسود وشربة . وقد أدهشنا هذا الطلب ، فما نحن بحاجة الى
شاي أسود ولا إلى شربة ، ولكنه عاد إلينا فأفهمنا أنهم يسمون
الشاي الأحمر هناك شاي أسود ويسمون الماء «شربة» وهكذا
أحضر لنا ما طلبنا وقد ضايقنا في جلوسنا بعض أتربة تتصاعد
من الطريق ، كما أساء الى عواطفنا منظر المتسولين وكثرتهم :
مئات من الأطفال والنساء والرجال يكادون يكونون في حكم
العراة يسود أجسامهم عدم النظافة يتسولون في الطريق العام .
وكثرة المتسولين هناك أمر طبيعي يتفق مع حالة البلاد الآن
فهم في حالة من الفقر والحاجة تدفعهم الى التسول ، وقد أطمعهم
في ذلك عطف الحجاج عليهم واعتبارهم العطاء قربانا لله تعالى
في تلك البلاد . يضاف الى ذلك ان الحجازيين لا صناعة لهم ،
بل هم عاجزون عن إدراك الصناعة وكنهها . ولذلك تكاد

لا يجد بين الحجازيين منهم غير بعض طبقات محصورة في الموظفين والتجار وبعض الملاك.

ولو عنت حكومة الحجاز بأمر هؤلاء لاستطاعت أن تخلق منهم صناعات لا يكونون عالة على أحد، ولا استطاعت أن تنتفع من صناعتهم بما يمكن أن يحصله من ضرائب. وأعتقد أن من أول ما يمكن أن يشتغلوا به بناء السفن وديع جلود الاضاحى وتجهيف لحومها وما إلى ذلك من الصناعات التي تناسب جو بلادهم وطبيعة أرضها وازراقها كاستخراج اللؤلؤ من البحر.

إن الحجاج على اختلاف أجناسهم يذبحون في أيام العيد نحو نصف مليون من الخراف لها لحومها ولها جلودها، فتصور أن أغلب هذه اللحوم لا ينتفع به، لأنها أكثر من حاجة الحجاج والسكان، كما أن كل هذه الجلود تضيع هباء لا يستفاد منها وهي ثروة لا يستهان بها سيما إذا ضيف إليها ما يذبحه أهل البلاد خلال العام وفي المواسم.

الساعة الآن السادسة مساء بالزمن الأفرنجى، وهو غير معروف في الحجاز، لذلك أدركنا تقارب ساعتنا، فنحن الآن في الساعة الأولى مساء بعد المغرب بساعة، وهذا هو المطوف قادم يطلب إلينا أن نستعد للسفر إلى مكة. فالسيارة على وشك الوصول إلينا لتضمننا إلى ركابها.

لكل حاج مطوف ، ولا يصرح بالنزول الى جدة لمن لا مطوف له ؛ ولذلك تحصل أجور المطوفين في مصر مقدما قبل السفر ، كما تحصل أجور السيارات . ولكل مطوف مقر في جدة يمكن التوجه اليه والاستراحة فيه نظير أجر زهيد لمن لا يرغب في الذهاب الى الفندق أو لمن لا يجد محلا خاليا فيه لكثرة النازلين في بعض الأحيان . ولقد كان من حسن حظنا أن وجدنا محلا خاليا في فندق الحكومة الحجازية حيث تتوافر سبل الراحة . وهو فندق منظم يتألف من ثلاث طبقات ، وبه صالون جميل متسع مفروش بالأسطة الفخمة ، ومطل على البحر ، به مسرة د تليفون ، غير مسرة الفندق نفسه ويتبعه مقهى صغير لمن يريد الجلوس فيه ، وبهذا المقهى آلة للاذاعة د راديو ، ولا يقل عن فندق مصر الحديث سوى أن بالآخر تيارا كهربيا يولده مولد د موتور ، خاص ، وهذا يكثر في أغلب المنازل الكبيرة بجدة ، فضلا عن حدائق مبناه . أما فندق الحكومة فيضاه بالمصاييح د الكلوبات ، البلدية التي يوجد واحد منها في كل غرفة .

وصلت السيارة وحملنا عليها متاعنا وجلسنا في انتظار قيامها طويلا ، وسألنا عن سبب هذا التأخير ، فقالوا إن وكيل المطوفين أمر يا حضار السيارات ، ولكنه لم يعط الإذن بقيامها ، ولا بد أن يكون هذا الإذن مكتوبا . ثم جاء الإذن ولكن السيارة

ظلت واقفة ١٩ لماذا ١٩ لأنه لابد مع هذا الإذن من أن تكون لدى السائق أوراق بعده الركاب تدل على أن الركاب دفعوا ضريبة المرور ، وهذه الضريبة تحصل أصلا في مصر مع أجور السيارات ، وهي ما يسمونه هناك « بالكوشان » ، وعند ما تتم هذه الإجراءات تتحرك السيارة قاصدة مكة .

تمت هذه الاجراءات حيث كانت الساعة الرابعة ليلا « عربى » وجاء السائق وأخبرنا أنه مستعد للقيام فقمنا الى السيارة وركبناها .

وبدأ السائق يسيرها . . .



مِنْ جَدَّةِ إِلَى مَكَّةَ وَمِنْ الدَّارِ إِلَى الْحَرَمِ

كنت اظن اننا سنستمر في سيرنا حتى نصل إلى باب
الحرم أو على الأقل إلى حيث نقيم بمكة . ولكن السائق
طاف بنا في شوارع جدة ثم وقف ! هذه هي دار البوليس
التي نبرز فيها اوراق الكوشان !

ونزل السائق وغاب فترة حتى أتم عمله ، ثم عاد وانطلق
بنا إلى الباب الشرقي للمدينة ، وهو الباب الموصل إلى مكة
من بين تسعة أبواب في سور جدة الخمس الاضلاع ، وهناك
استوقفه رجال البوليس الواقف بباب المدينة حتى اطلعوا
على الأوراق وصرخوا لنا بالرحيل .

سرنا بعد ذلك في طريق متسع هو في الجملة بين رملي وججري ،
فتارة نرى أخاديد الرمال ، وتارة نرى الجبال ، وقد رسمت السيارات
لمسيرها طرقا خاصة ولكل من العجلتين مجرى تسير فيه ، فإذا
أرادت السيارة أن تنتقل منه فلا بد من إحداث حركة لها أثرها
في رموس الركاب خصوصا في الاماكن التي لا رمال فيها أو بها
رمال وكميات من الحجارة بين كبيرة وصغيرة قد ترتطم للسيارة
في إحداها ، وقد تضطدم بأحدها فجأة ثم تنزل كذلك فجأة فتحدث

انقلاباً بين الركاب في داخلها ، وقد يرتطم رأس الواحد منهم بسقف السيارة فيجرحه .

ولم يحصل لنا لحسن الحظ شيء من ذلك ، فقد كان سائقنا حريصاً جداً وماهراً اعتنى بنا وبراحتنا بمقدار حذقه من جهة ، وعنايتنا به من جهة أخرى ، لكن كثيرين قد حصلت لهم حوادث سمعنا بها فآلمنا ذلك .

سرنا في طريق متسع محاط بالجبال والرمال في مواضع مخيفة ، وكانت السيارات فيها كثيرة بين ذاهبة وآية ، وكانت الذاهة ملأى بالركاب ، أما الآية فكانت عائدة لإحضار ركاب من جدة .

وكان الطريق مع ذلك مكتظاً بالراجلين المشاة ، وقد شاهدنا واحداً يركب الحمار ، وواحداً يركب عربة ذات عجلتين يجرها جواد واحد .

هؤلاء المسافرون جميعاً المدفوعون بحب الله ، القائمون لتأدية فريضته ، الساعون إلى بيته ، المحتملون في ذلك أسباب الغربة ومشقة الطريق ، كل هؤلاء عاكفون على التلبية مستمرون في الحمد لله والثناء عليه .

ولقد يهرك الإخلاص ومظاهره ، والتفاني في العبادة وأثره عند ما تقع عينك على شيخ نيف على التسعين أو المائة أضناه الزمان ، وهو يسير على قدميه ليقطع هذه الأميال ، خلوا من الطعام

والشراب ، مأخوذاً بقوة روحية حملته من بلاد بعيدة ، وهو يمني نفسه بالحياة ! حياة الدين والدنيا .

نعم لا حياة الا برضى الله ! أما أولئك الذين شغلهم ملاهى الدنيا عن جد الآخرة فقد خسروهما معا .

إن فى العمل للباقية حياة دنيوية لذيدة هائلة ، فان العامل لها لا يعوزه مرح ولا صحة ولا علم ولا مال . إذ العمل للآخرة لا يمنع النفس من أن تنال حظها من اللهو البرىء ! وليس العمل لله بعائق عن الجد فى الدنيا للحصول على ثمارها الحلوة الشبيهة الشريفة .

والأديان جميعاً تحض على التزود من الدنيا للدنيا والآخرة ، ومن الحياة للحياة والموت ، ولذلك قيل : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ،

وهذا صريح فى أن العمل للآخرة مقترن بوجوب العمل للدنيا .

ولذلك كان من أهم شروط العبادة السعى فى الرزق وترفع المرء عن أن يكون عالة على الناس .

بل إنى أظهار لى بما قرأته وشاهدته أن أوامر الأديان ونواهيها إنما وضعت لحكم دنيوية ، وما الدين إلا وسيلة للعيش

الرغيد في الدنيا والهناء الدائم بعد الموت . فليس هناك أمر ديني إلا وله في الدنيا صالحة ، وليس هناك شيء ديني إلا وله في الدنيا حكمة ، ولولا أن مجال هذا البحث واسع لضربت لك الأمثال كثيرة متعددة ، وها هو الحج لست أريد أن أحدثك عن جانبه الديني ، فهو من حيث الدين فريضة وطاعة عليك أن تقوم بها دون أن تناقش في أسرارها ، وتؤدي مناسكها دون أن تعرف أسباب وجوبها ، ولكني أريد أن أتحدث عن فوائد الحج ومناسكه من حيث الدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يقول : وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم

ولست أريد أن أذكر من هذه المنافع ما يستفيده الراحل من العرفان ببلاد جميلة لها مزاياها الطبيعية التي يسافر من أجلها السائحون في مختلف الأنحاء ، ولا ما يفيده أهل الحجاز من زيارة الحجاج لهم .

إنما أريد أن أذكر ما يجنيه المرء عادة من التعارف بالناس في جهات متعددة ، وثمره ذلك في رواج التجارة وتبادل الأرزاق .

والحج مذهب للنفوس يدفعها إلى الفضيلة ويدفع الرذيلة عنها ، والفضيلة والرذيلة تنطوي تحتها كل معاني الحياة . ينطوي تحتهما القيام بالواجب وعدم القيام به ، والعدل والظلم والعطف

والقسوة ، والإعطاء والحرمان ، واحترام الناس وازدراؤهم
والكمال والنقص .

والحج مساواة بين الناس : الكبير والصغير ، سواء كان ذلك
في الإحرام أم في الطواف والسعى والدعاء ، نزول في الحرم
الفوارق بينهم فلا يكون لمرئى فضل على عجمى إلا بالتقوى .
لهذا أعتقد أن الحج على ما فيه من فكرة دينية فإن له
حكمة دنيوية ، وهكذا كل الفرائض .

تابعت السيارة بنا سيرها والطريق على ما وصفت ، وكنت
أتوقع بعد ما سمعت أن السيارة ستقف بنا في كثير من الأماكن
ولكن سائقنا لم يقف بنا إلا حيث أراد هو أن يقف ، فاستمر
سيره حتى رأينا أنواراً قليلة ساطعة تتلألأ في ظلام الليل ،
وإذ وصلنا إليها وجدنا داراً للبوليس الذى أقبل علينا واطلع
على أوراقنا الكوشان ، ووجدنا مقهى ذا كراسى ودكك متناثرة
في مكان قريب من الطريق ، فابدنا رغبتنا في النزول للراحة
فيها ، وبقينا بها نصف ساعة صلى فيها من صلى وأكل فيها من أراد ،
وتناولنا بعض الشاى والقهوة ، وانصرفنا ، وكانت تلك هى محطة
أم السلم .

سرنا بعد ذلك عشرين ميلاً حتى وصلنا إلى قرية كبيرة
هى محطة للسيارات والقوافل ، وهى بطبيعة الحال أكبر
من أم سلم ، وبها مطعم واستراحة « لوكاندة » ونقطة للبوليس

استرحنا فيها مدة يسيرة ثم سرنا فقال لنا السائق : إنه قد بقي بيننا وبين مكة نحو ثلاثين ميلا ، وأنه ستقابلنا محطة الشميسى ومكان الحديدية ، فأعربنا له عن رغبتنا في أن نواصل سيرنا إلى مكة رأسا ، وأن ما قضيناه في الاستراحتين السابقتين كاف خصوصا أن الليل قد فات أكثر من نصفه ونحن نريد الطواف والسعي قبل الراحة ، وعلى هذا اتفقنا .

كانت رحلة جميلة ، وكان الجو صافيا ، وكانت النفوس فرحة وكانت القلوب مستبشرة ، ولم يقف لسان أحد عن التلبية والتهليل والتكبير ، وكيف تفترا الألسنة عما رغبت فيه ورحلت من أجله ؟ الطريق بدوى طبعيا ، والمباني التي عليه بدوية أيضا ، ولعل وعورة الطريق من أهم العوامل التي تستغرق الوقت وتجهد القوى ، ولذلك عمدت مصر إلى اعترام إصلاحه ورصفه ، وهي جادة في اتخاذ الآهبة لذلك ، وعلى الرغم من الأماكن الرملية والصخرية التي مررنا بها لم تعثرنا السيارة وإن كنا قد شاهدنا بعض السيارات متعثرًا في الطريق ، ومررنا بالشميسى وغادرناها ، وبعد قليل وقف السائق فجأة ! وقال هذا حد الحل والحرم !! نحن الآن في الأرض الحرام ، هذا مكان البيعة ، وهنا المسجد الذي أقيم مكان الشجرة التي بايع المؤمنين تحتها رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسرنا قليلا وأصبحت مكة على مرأى العين . ولمسكة دعاء يتلوه المرء عند ما تقع عليها عينه : اللهم إن هذا الحرم حرمك

والبلد بلدك والأمن أمنك والعبد عبدك جنتك من بلاد بعيدة.
بذنوب كثيرة وأعمال سيئة ، أسألك مسألة المضطر اليك
المشفق من عذابك أن تستقبلني بكريم عفوك ، وأن تدخلني
في فسيح جنتك ، جنة النعيم . اللهم إن هذا حرمك وحرّم رسولك
فحرّم لحمي ودمي وعظمي على النار ، اللهم آمين من عذابك يوم
تبعث عبادك ، أسألك فإنك أنت الله لا إله إلا أنت الرحمن
الرحيم ، أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً .

الآن نسينا متاع السفر ، نسينا مشقة الطريق . نسينا
ما لقينا من مشقة انتظار السيارة ومرورها على نقط
البوليس ، ونسينا أولادنا وأهلنا ، نسينا مصر ، نسينا أعمالنا
ومتاعنا ، لم يعد لنا في الذاكرة غير الله ولا شاغل لنا إلا حرمة .
اللهم إن الحرم حرمك ، اللهم إن العبد عبدك ، اللهم لا ظل
إلا ظلك ، اللهم لا ملك إلا لك ، اللهم لا مرجع إلا إليك . لكل
قضاء مرد إلا عضاؤك ، ولكل كلم رجعة إلا حكمك ، مالك الملك
المسيطر على العالم ، خالق النفس والشمس والقمر .

ليس لنا إلا أن نسأل الله العفو والعافية ، نسأله عفو القادر
وجنة الخلد يوم يبعث عباده .

أى لذة تشعر بها الروح الطاهرة ، وأى رهبة تملك النفس
عندما ينادى المنادى : هذا حدّ الحرم ؟ !

أى نشوة تسيطر على الروح إذ يرى من بعيد أضواء متناثرة
ويقال له إن هذه أنوار مكة ؟!

هذا سائق السيارة وهو يرتاد المكان عدة مرات كل يوم
لا يتمالك نفسه عندما يصل إليه أن يقول : الله أكبر ، هذا هو البلد
الحرام ، وقد سأله فى ذلك فقال : ليس أسعد لروحي من وقوفى
هنا كل مرة أحضرها ، لأنى أؤخذ كلما وصلت الى هذا المكان ،
وبمقدار ما يتملكنى هزة السرور عند الدخول فيه أشعر بالأسف
عند مغادرتى له ، وكيف لا وأنا — هكذا قال — اذا ما نمت
هنا كنت كالعابد فى مكان آخر ؟ أليس النائم فى مكة خير
من العابد فى غيرها ؟ أليست الصلاة فيها خير من آلاف فى غيرها ؟
لك أن تعتقد أن الرجل مبالغ ، ولكن ليس لك إلا أن تفسر
أن السحر والوجدان الدينى هما اللذان يمليان عليه هذه المبالغة .
دخلنا مكة ، وهى تبدأ بميدان فسيح به دار للبوليس وقفت
عنده عدة سيارات وعربات لنقل المسافرين ، وجاء الضابط
يستقبل السيارة ويطلع على أوراقها ، فحيانا وأحسن استقبلنا
وعلم من زميلى أننا من رجال المحاكم المصرية فدعانا للنزول
إلى داره لنطلع على أعمالها ، وقد حاولنا أن نعتذر له ، لأن الليل
أوشك أن يغترب ، وأن لدينا أعمالا لا مناص من أدائها قبل
انقضائه ، ولكنه صمم على دعوته فلم يسعنا إلا النزول على إرادته
وكان المطوف فى استقبالنا فاستمهلناه حتى نلتهى من هذه الزيارة .

الموظفون الحجازيون قوم في غاية الظرف والأدب: استقبلهم
حلو، وحديثهم حلو وكلامهم عذب، ووجوههم سميحة، ولولا أن
في إجراءاتهم وتشبثهم بالقيود الشكلية صلابة لما وجدت خيرا
منهم أداء لعملهم.

دخلنا نقطة البوليس، وهي دار صغيرة تتألف من ثلاث
حجرات وصالة صغيرة خصصت الغرفة اليسرى لمكتب
الضابط، وهي تحتوى على مكتب من الخشب وكنبة ومسرة
تليفون، وفي نافذتها أواني الماء، وقد خصصت الغرفة اليسرى
لراحة الجنود، أما الغرفة الصغيرة التي في مقابل الباب ففيها أمتعة
العساكر وملابسهم.

أطلعنا الضابط على دفاتره، فإذا هي معدة بعضها لنظام العمل
وبعضها لقيد الداخلين إلى مكة والخارجين منها، لم يفرط
في صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ومن هذا استطعت أن أتبين
أن هذه النقطة هي مفتاح المدينة، وأن كل ما يجرى في المدينة
محفوظ في سجلات هذه الدار.

فمنها يمكن حصر الركاب والسيارات والبضائع والجمال
والخير التي تمر بهذا المكان — ولا يمر غيره — ويمكن بعدئذ
ضبط إيراد الحكومة من هذه الحركة، إذا أنها على ما علمنا
تساعى في شركة السيارات.

لم يطل وقوفنا مع الضابط، لأنه كان مشغولا بملاحظة السيارات

الداخلة وإحصاء من فيها وما فيها ، وركبنا سيارة مرت بنا في فضاء واسع ، ثم في شارع متسع ، ثم في شارع الشبيكة حيث أعد لنا مطوفنا محل الإقامة .

دخلنا المنزل فاسترحنا قليلا ثم خرجنا لأداء ما علينا من شعائر الدين .

والمنازل في مكة كالمنازل في جدة ، وكان المنزل الذي أعده لنا المطوف مؤلفا من خمس طبقات نزل قاض مصري مع زوجته في أولها ، ونزلت مع والدي وخادمنا في الثانية ، ونزل زملاؤنا الثلاثة رجال المحاكم في الثالثة ، ونزل صاحب البيت في الرابعة ، أما الطابق الأرضي فكان حوانيت للتجارة .

وهكذا كان هذا البيت كأنه محكمة مصرية كاملة ، وبأخذك الدهش اذا رأيت مصادقة أن صاحب الدار أيضا قاض حجازي ، ويسكنه من الحجيج قاض مصري ، ووكيل نيابة ، وسكرتير نيابة ، ورئيس كتاب إحدى المحاكم المصرية ، وليس به عدا هؤلاء سوى بعض الأهل والخدم .

وكانت مصادقة جميلة ظن معها رجل حجازي ظريف أن نكون قد أزمعنا احتلال دار القضاء عندهم ١ . والدار التي نزلنا فيها تعتبر مثلا طيبا للدور في مكة ، فإنها من أحسن مبانيها بعد قصر الملك ودور الأمراء والوزراء ودار الحكومة . وتكاد كل المنازل تتألف من حجرة واحدة بداخلها أخرى وعلى بابها

دورة المياه كما تكاد كل الحجرات تكون مؤتة بالمصاطب ،
الدائرة حول الجدران ، والمفروشة بالحشيات والوسائد ، وهي
تستعمل للجلوس نهارا ، فاذا جاء الليل وضع عليها فراش آخر
ورفعت فوقها الكلات واستعملت أسرة للنوم . ومرافق المياه
هناك خالية من النظام والنظافة . فطلاء حوائطها لا يكاد يعتبر
طلاء ، فهو طبقة رقيقة من الجير على الأحجار لا تتوسطهما طبقة
من الدهان كالتى توضع فى مصر . لذلك لا أخفى عليك أن الإقامة
فى هذه المنازل لا تيسر معها الراحة . ولذلك كنت مضطرا
أن أغتسل فى حمام آخر خارج المنزل كلما أردت الاستحمام ، ولولا
أن المطوف كان قد استأجر البيت ودفع أجره لصاحبه ، ولولا
أن زملائنا عز علينا فراقهم لا نقلنا إلى فندق الحجاز للإقامة
فيه ، ولكننا احتملنا كل شيء لا يحتمل من أجل هؤلاء الرفاق .
سندرس مكة غدا أما الآن فنحن ذاهبون إلى الحرم
نطوف ونسعى ، ولدينا لمكة أسبوعان ندرس فيهما ما شئنا أن
ندرس وما تمكنا الفرصة من دراسته . كان لزملائنا رأيان
أحدهما أن نستريح إلى الصباح ثم نقوم للسعى والطواف ،
وثانيهما أن نقوم اليهما فوراً فالأمر لا يحتمل التأخير . وكنت
صاحب الرأي الثانى ، ولم أقبل بشأنه أى جدل ولا جدال فى الحج ،
وكانت حجتي أننا قادمون من بلاد نائية للطواف والسعى فلا
معنى لتأجيلهما عند ما نصل إلى مكة ؟ هذا لن يكون . إني

ياسيدي ذاهب إلى الحرم رافقتموني أو انفردت عنكم فلا
تضامن في العبادة ، وكل ميسر لما عزم عليه . بماذا نحاور ضمائرنا
إذا فات الوقت ولم يبق لدينا سوى أسف واث ساعته ، ونندم
لا يجدي ولا يفيد .

انضم اخواني لرأى وقتنا في ظلام الليل متجهين الى الحرم .
ليس في مكة إضاءة لشوارعها ، والناس يسرون على هدى
مصاييح يحملونها ، وكانت معنا بطارية ، أضأناها وسرنا في خطى
مطوفنا وهو ينادى بأعلى صوته : اللهم إن هذا الحرم حرمك
والبلد بلدك والأمن أمنك ، ونحن ثمانية نتبعه نردد هذا الدعاء
في صوت مرتفع متهدج يشق عنان السماء .

ليس لقانون التجمع سلطان في بلاد الحجاز ، ولو كان
ناقدا هناك لما كان له علينا من سبيل ، فما نحن من تكبون
وزرا ، وما نحن عازمون على ارتكابه إنما نحن ننادى بالدعاء لله
صاحب السلطان وما نخشى أن يكون لصوتنا تأثير في راحة
السكان والنائمين ، فما أعدت مكة للنوم أيام الحج ، والآلاف
الهابطون اليها يسرون في الطرقات كما نسير . ولو أننا ذهبنا إلى
الحرم راكبين أو راجلين صامتين ما كانت نفوسنا لتستريح
إلى حسن أداء الواجب ، ثم ما كنا للشعربروعة العبادة
ورهة المكان .

وهكذا سرنا حتى وصلنا إلى الحرم وطفنا حوله بعض الطواف لنصل إلى باب السلام ، فإِ وصلناه حتى أشار لنا المطوف بالوقوف ثم قال إن الدخول إنما يكون بالرجل اليمنى وفجأة أشار لنا بترديد دعائه ثم رفع صوته في باب السلام وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام ، تباركت ربنا وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ، اللهم افتح لي أبواب رحمتك ومغفرتك وأدخلني فيها بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ،

ذلك أنه يستحسن أن يكون دخول الحرم لأول مرة من باب السلام ، ويحسن عند الوصول أن يكون الدعاء بما مر ، ثم دخلنا بيمنانا ونحن مأخوذون بجلال البيت ومهابة صاحب البيت وقد رأينا الآلاف هناك يعبدون الله كأنما الليل لم يخلق لمسكة وحجيجها ، أو كأنهم وقد جاءوا إلى بيت الله يعملون بما أمر الله : وقم الليل - ألقبلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ، أنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلاً ، ان لك في النهار سهجا طويلاً ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذهُ وكيلاً ، وهم يفتقدون أنهم لو ناموا الليل لضيعوا وقت العبادة في مكة وهي دار للعبادة وقد قطعوا آلاف الاميال مسافرين إليها لهذه العبادة وحدها

وما وقع نظرنا على البيت الشريف حتى انطلق المطوف
ينادى « لا اله الا الله والله أكبر ، وبعد أن هتف بهذا ثلاثا
قال « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو
على كل شيء قدير ، أعوذ برب البيت من الكفر والفقر
ومن عذاب القبر وضيق الصدر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم ، اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتكريما وتعظيما
ومهابة ورفعة وبر يا رب من شرفه وكرمه وعظمه بمن حجه
واعتمره تشريفا وتكريما وتعظيما ومهابة ورفعة وبر ، ثم دخلنا
نؤدى طواف العمرة حول بيت الله الحرام .

ليس في معاجم اللغة العربية ولا في موسوعات اللغات الأخرى
ما يستطيع به المرء أن يصور منظر الحرم في جلاله أو منظر
الكعبة في قدسيتهما والناس يطوفون حولها ، بل ليس في قدرة
التصوير المتحرك « السينمائي » أن يصور صورة واضحة لهذا
المنظر ، فإنه مهما كان واضحا فلن يصور مظاهر المهابة
والسحر الروحي والرهبة التي يؤخذ الناس بها ، وليس في قدرتي
أن أوضح السبب في هذه الروعة ، ومهما يكن فليس السبب
بناء الكعبة وما حولها من شعائر ، إنما هو رابطة القلوب واجتماعها
حول الدين الحنيف الذي نشره محمد عليه الصلاة والسلام
وأرسل له من لدن عزيز حكيم . وما الكعبة وما الحرم إلا رمز
التقديس والعبودية لله تعالى .

تعالوا يا رفاق نؤدى واجب الخضوع والابتهال إلى الله تعالى بالطواف حول الكعبة المقدسة ، تعالوا نمر من باب بنى شيبه لنصل إليها ، وتقدموا إلى الله عند هذا الباب داعين قائلين : رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً ، وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً .

تعالوا بنا ننوى الطواف معاً سبعة .

حول الكعبة

نوبنا أن نطوف للعمرة سبعة أشواط، وأقبلنا على ما بين الركن اليماني والحجر الأسود وقلنا « بسم الله الرحمن الرحيم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ثم تقدمنا حتى حاذينا الحجر الأسود لنبدأ الطواف منه ووقفنا مستقبلينه قائلين « بسم الله والله أكبر والله الحمد والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم . اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة والفوز بالجنة والنجاة من النار » ثم تقدمنا نحو الحجر الأسود فقبلناه على رغم الزحام الشديد ، فقد كان الزحام بالغاً أشده بحيث لا يتصوره الذهن ولا تدركه العين ، ولولا معونة جندي واقف بجواره لما تيسر لنا أن نقبله وما استطعنا الوصول إليه ، ومع ذلك فلم نستطع النجاة من الزحام إلا بشق النفس وبضال أدى إلى وقوع منظرنا فانكسر وضاعت كل أجزائه وأعضائه .

وأخذنا نعد الأشواط ونندعو في كل منها بدعاء ، حتى إذا حاذينا الركن اليماني استمناه فلما اقتربنا من الحجر الأسود قلنا « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »

وإذا حاذينا الحجر الأسود كبرنا وحمدنا الله حتى أتممنا
الطواف سبعة وختمناه بقولنا « اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً
مشكوراً وذنباً مغفوراً ، رب اغفر وارحم ، واهدني السبيل
الأقوم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم »

فلما أتممنا الطواف توجهنا الى الملتزم « حائط الكعبة بين
الحجر الأسود وبابها » ووضعنا عليه صدورنا وفرشنا أذرعنا
وهتفنا في ذلك المكان حيث يستجاب الدعاء « اللهم يا رب
البيت الحقيق اعتقني واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا
وإخواننا وأولادنا من النار وأعذنا من كل سوء وأقنعنا بما رزقنا
وبارك لنا فيه يا ذا الجود والكرم والفضل واليمن والعطاء
والإحسان ، اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من
خزي الدنيا وعذاب الآخرة . اللهم إني عبدك وابن عبدك
واقف تحت بابك ملتزم بأعتابك منذل بين يديك أرجو رحمتك
وأخشى عذابك يا قديم الإحسان . اللهم إني أسألك أن ترفع
ذكرى وتضع وزري وتصلح أمري وتطهر قلبي وتنير لي قبري
وتغفر لي ذنبي ، وأسألك الدرجات العليا في الجنة »

فلما انتهينا من هذا الدعاء انتقلنا إلى مقام إبراهيم فصلينا
ركعتي الطواف ودعونا الله ومررنا على زمزم فشربنا منها
هنيئاً وقلنا « اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء

من كل داء ثم عزمنا على الخروج للسعي بين الصفا والمروة ، وكان من الجائز أن نشير اليه ونقبل ما أشرنا به ، خصوصاً وقد لقيناه في تقبيله شدة بالغة والكر . نفوسنا أبت إلا أن نفعل ، فبذلنا جهودنا حتى وصلنا اليه ونلنا ما اشتهينا . وبعد أن فرغنا من الطواف وتوابعه خرجنا الى السعي مسرعين .

« ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فأجر . » الله شاكر عليم ،

وارتفعنا على درج الصفا ونوينا السعي وقلنا الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر والله الحمد ، ثم اتجهنا إلى المروة داعين ذهاباً وجيئة موالين حتى قطعنا الأشواط السبعة ، وكنا إذا ما وصلنا إلى العمودين الأخضرين في شارع المسعى هرولنا وأسرعنا في مشينا إسراعاً هو فوق المشى ودون الجرى .

الناس آلاف في هذا الشارع والأصوات فيه تشق عنان السماء ، وكنا نظن أنهم يتناقصون فإذا بهم يتزايدون ذلك أن العبادة تحرض من طاف أن يعاود الطواف مرة أخرى ، وتدفع من سعى إلى أن يعاود السعي ، وقد اقترب الفجر وبدأ الهاجعون يستيقظون من نومهم إلى طوافهم وإلى سعيهم .

انتهينا من هذا كله وتوجهنا إلى حيث خلق كل منا بعض

شعر رأسه ، وبهذا تحللنا من الإحرام ، وحل لنا كل ما كان محرماً علينا من قبل .

عدنا الى المسجد الحرام لصلاة الفجر ، وإذا بالناس بعضهم فوق بعض متزاحمين ، وإذا بالمؤذن يؤذن بصوت جميل أخذ ثم قامت الصلاة والناس حول الكعبة متقابلة وجوههم ، فإن كل جانب من جوانبها قبلة يتجه اليها الناس في الصلاة .

ليس هنا ما يشغلنا غير الله وعبادته ، وليس متجاليا غير حياة الروح ، ليس هنا غير محبة خالصة ، خالية من الغرض ، غير معلولة بعلة .

أدينا ما علينا ولم يبق غير التزود من التقوى وإنفاق الوقت في التقرب الى الله تعالى ، فلنذهب الآن الى منزلنا نستريح قليلاً ثم نعود الى المسجد نتعبد فيه ماشاء الله أن نتعبد ، وندرس تاريخه وآثاره .

نحن الآن قبيل الظهر ، وبعد صلاته سنعود الى دارنا ونجتمع معا أيها الرفاق على مائدة غداء واحدة عربونا لصداقة مقمية وعلاقة دائمة في سبيل الله ، فقد أعددت لكم اليوم طعامكم ، وسنذهب بعد ذلك الى الحرم نصلي العصر ، ونبقى حتى نقضى صلاة العشاء ، ولنؤجل دراسة مكة إلى غد أو بعد غد حتى نروى غلتنا من هذا المكان المقدس . ولنعد الطواف تهجدا وتقربا

وزلني لله جل شأنه وتعالى اسمي ، وتقدست عظمتي بين الأناء
هكذا قلت لرفاقي ، وكان ما أردته .

هذه هي الكعبة !

هذا هو الحرم !

هذا هو المسجد الحرام .

هذا الذي ورد ذكره في الكتاب الحكيم :

« قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول
وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم
شطره » ، « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد
الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون
للناس عليكم حجة »

أجمع المفسرون على أن المسجد الحرام هو الكعبة ، ولذلك
يولي المرء وجهه شطرها في صلاته . وليس المقصود إذن هو حرم
المسجد أو ما أضيف إليه من فضاء ، ذلك الفضاء الذي كان
موجودا منذ القدم ثم بنيت فيه منازل هدمت بعد ذلك
وأضيفت إلى المسجد الحرام لزيادة المساحة .

يدل على صحة هذا التفسير أن الناس داخل الحرم يولي
كل منهم وجهه شطر الكعبة ، فيقف إلى أي جانب من الجوانب
ويصلي مادامت الكعبة أمامه ، ولهذا ترى المصلين وجوههم

متقابلة ، منهم من يتجه نحو الشرق ، ومنهم يتجه نحو الغرب ومنهم من يتجه إلى جهات أخرى ، ولو كان المقصود بالمسجد الحرام المسجد نفسه لأتجه المصلون إلى جهة واحدة من جهات الكعبة .
هذه هي الكعبة « أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين »

ليس هناك مجال للقول بأن هناك بيوتاً وضعت للناس قبل ذلك البيت الذي ببكة . فهناك من يقول إن بيوتاً أخرى كانت موجودة قبله ، وأن الترتيب الذي نزل في القرآن عن أولوية بيت مكة إنما هو الأولوية من حيث البركة والهدى ، فإن الأولوية على هذا غير مفضلة على أولوية الوضع . ولعل هذا الرأي هو الذي بعث الكافرين إلى القول بأن بيت بكة إنما هو من عهد آدم . نعم لقد جاء في « شفاء الغرام » للتحقي الفاسي أن الكعبة قد بنيت عشر مرات أولاً بناها الملائكة وثانيها بناء آدم .

وصف الكعبة

والكعبة في وصفها الحالي بناء شاخ قائم في وسط المسجد بالغ الروعة والفخامة ، مرتفع شاهق الارتفاع ، فهو وإن كان غرفة واحدة ، إلا أنه مرتفع خمسة عشر متراً تقريباً ، ولهذه الغرفة باب يفتح إلى الجهة الشرقية ، ويرتفع عن الأرض نحو المترين وفيما عدا الارتفاع فهي بناء يكاد يكون مربعاً ، عرض كل

ضلع من أضلاعه نحو العشرة الأمتار أو يزيد . . ويخيل إلى أن ضلعيه الغربي والشرقي يزيدان نحو متر عن الضلعين البحري والقبلي .

هذا البناء الشاخ مستور من كل مكان خارجي بكسوة فاخرة ، ترسلها مصرفي كل عام موشاة ومطرزة أحسن تطريز داكنة اللون ، مصنوعة من الحرير ، كما أنه مكسو من الداخل كذلك . لقد شغفت نفسي بدخول هذا البيت العتيق ، والدخول ليس بالأمر اليسير ، فإن للكعبة مفتاحاً له أمين يدعى الشيخ الشيبى ، وهو مولى عليها فلا يدخلها أحد إلا بإرادته ، وهذه الإرادة قد لا يكفي المال القليل فى الحصول عليها ، ولا مناص بعد المال من توصية أو معرفة .

حتى فى عبادة الله ودخول بيته يقف الخادم حائلاً يأذن لمن يشاء ويمنع من يشاء كما هو الحال فى أمور الدنيا !!

ان هذا البيت وضع للناس !

أفلا يكون الناس أحراراً فى دخوله ؟ ؟ وإذا خيف من أن يمسوه بسوء فإن اتخاذ العدة للنظام كفيلة بصيافته ! .

لكن هؤلاء المكيون معذورون فى نظرى ، لأن الحجاج يدفعون اندفاعاً شديداً فى كل مناسكهم . . فهم إذ يريدون الطواف لا يقنعون ، وإذا يريدون تقييل الحجر الأسود

لا يشبعون . واذا استلموا الركن اليماني لا يتركونه ؟ فكيف يطلب الى آل شيبي أن يتركوا الناس أحراراً في ذلك ؟ يضاف الى هذا أنه مصدر إيراد كبير لعائلة كبيرة من أقدم عائلات مكة .

كانت معي توصية فكان الترحيب بي من آل الشيبي بالغاً والحفاوة كبيرة ، فصعدت على السلم ودخلت ، فواصلت الى الباب حتى أخذتني رهبة هزت كل جوانب نفسي هزاً عنيفاً . ما سبب هذه الرهبة ؟ ؟ ولست إلا داخلا حجرة كالحجرات التي أدخلها عدة مرات في كل يوم . وما أظن الرهبة قد تولتني من الرائحة الزكية التي فاح أريجها في هذه الغرفة المقدسة ، ولا أظن أن للشيخ الشيبني تأثيراً يرهب النفوس ويدخل عليها هذه الحالة التي سرعان ما اعترتني .

ما هذا الخشوع وما هذه الروعة التي جعلتني حين أرشدني الأمين الى المكان الذي صلى فيه النبي عايه الصلاة والسلام (١) لم أستطع أن أذهب اليه لشدة ما بي لولا أن أمسك بي أحد مساعديه وما زال بي حتى اوقفني فيه .

ولقد استكثرت على نفسي أن أقف في هذا المكان ، فما هناك في رأي أحد يجوز له أن يقف فيه : يجب أن يبقى هذا

(١) أمر صلاة رسول الله في جوف الكعبة موضع خلاف بين المسلمين القدماء ، فمنهم من أثبتته ومنهم من نفاه . ولذلك اختلفوا في جواز صلاتها فيها .

المكان بعيدا عن متناول الناس ، فلا يكون لهم منه إلا مشاهدته ، وما يجوز في نظري أن يقف أحد في المكان الذي وقف فيه رسول الله ، فما في الدنيا إنسان له ما كان لهذا النبي الأمين حتى يقف موقف سيد الخلق الذي أنزل عليه القرآن . وما في العالم كائن نال شرف الوحي الذي نزل على قلبه من الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين .

وما كان لأحد أدبه وخلقه وعبادته وشرفه وعظمته وزهده فقد زهد في ذهب الدنيا ولو أراد له لكان له ما يشاء . أفيجوز أن يقف أحد موقفه ؟ . لذلك فإنني إذ نويت الصلاة وسجدت السجدة الأولى خطر لي ألا أرفع رأسي عن هذا المكان المقدس ! إنها حجرة مرفوعة على عمد ، ولكر . ليس في الدنيا حجرة ما تضارعها قدسية ومهابة وجلالا .

هذه هي الكعبة التي قيل إنها بنيت عشرين مرات كان أولها بناء الملائكة ، وهذا هو البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا ، وبه مقام إبراهيم الذي يتخذة الناس مصلى والذي عهد الله سبحانه إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

« وإذ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بَلَدًا آمِنًا وارزُقْ أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر

فأمتعته قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذا
يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم.

هذه الكعبة التي تأخذك الرهبة عند ما تقع العين عليها قد
بلغت من المنزلة المقدسة والاحترام منذ فجر التاريخ ما بلغت ،
وأجمع الناس على احترامها على اختلاف أديانهم سواء في ذلك
المسلمون واليهود والنصارى ، وكان من آثار هذا الاحترام
أن ظل لها حرم واسع لا يدخله المرء إلا وهو محرم ، ومن
دخله كان آمناً . هذا التقديس هو الذي جعل السورخين ينسبون
أول بناء لها للملائكة ، وهو الذي دعا إلى بنائها عشر
مرات على ما قيل ، وهو الذي جعل العرب يدافعون عن هدمها
ويناضلون في هذا السبيل على مختلف العصور كلها فكم واحد
في هدمها ليتحول العرب عن الحج إليها قبل الإسلام أو بعده .

لقد قيل إن الكعبة بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة
وبناء آدم ، وبناء أولاده ، وبناء الخليل ، وبناء العمالة ، وبناء
قصي بن كلاب ، وبناء قريش ، وبناء عبدالله بن الزبير ، وبناء
الحجاج بن يوسف الثقفي .

لست أدري إلى أي سند يستندون في أن الكعبة قد بناها
الملائكة أو آدم أو أبناؤه ، فإن الطوفان الذي جرى أيام نوح

عليه السلام أمر واقع . وقد أُنذر نوح قومه من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدُهم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفرَ لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً إلى قوله ، بما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دونِ الله أنصاراً ، وقال نوحٌ رب لا تذرْ على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ،

هذا الطوفان الذي هذه آثاره لم يترك مباني قائمة ، فإذا قال قائل إن الكعبة كانت موجودة من بدء الخليقة فقد يكون بقوله منصبا على مبنى آخر غير الكعبة القائمة اليوم ، إذ أنها لا يمكن أن ترجع إلى هذا التاريخ .

لذلك قال التقى الفاسي في كتابه « شفاء الغرام » ، إن رواية بناء الملائكة وآدم وشيث ليست صحيحة .
وسواء أصبح ذلك الذي قالوه أم لا فإنه لا نزاع في أن الكعبة التي نطوف اليوم حولها هي البناء الذي أسسه إبراهيم وإسماعيل ، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وليس أصدق من القرآن قبلاً .

ولا يمكن أن يقال إن هذه الآية الشريفة لا تقطع بأن

البيت عند مارفع ابراهيم وإسماعيل قواعده كان في دور الإنشاء .
لأنه لا يجوز أن يكون موجودا وما حدث به سوى زيادة
أو إصلاح ، فإن رفع القواعد قاطع في أنه إنشاء وخلقة . يؤيد
ذلك ماورد في القرآن من أن الأرض التي أقيم البيت عليها
كانت بواد غير زرع ، وكانت خالية من السكان . ولنا في هذا
نستنتج فقد قال ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير زرع ،
ويقطع بعدم وجود أحد قوله « فاجعل أفئدة من الناس
تهوي إليهم »

يؤيد ذلك ما ذكر عن نبع ماء زمزم مما سيرد عنه .
الكلام فيما بعد .

ودليل آخر على أن ابراهيم وإسماعيل هما اللذان أسسا
الكعبة ماورد في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها
قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا حداثة قومك
بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس ابراهيم عليه الصلاة
والسلام ، وورد عنها أيضا رضي الله عنها أنه قال عليه السلام :
لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لأمرت بالبيت فهدم
فأدخلت فيه ما خرج منه وألصقته بالأرض وجعلت له بابين
بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس ابراهيم ، قيل فذلك
الذي حمل ابن الزبير على هدمه . قال يزيد وشهدت ابن الزبير

حين هدمه وبناءه وأدخل فيه من الحجر ، وقد رأيت أساس
ابراهيم حجارة كأُسنة الإبل .

هذا كله قاطع في أن الكعبة من تأسيس ابراهيم واسماعيل .
وقد بلغ من وثوق المؤرخين بهذا التفسير أن قال التقي
الفاسي على التحديد « إن ابراهيم كان يبنى وكان اسماعيل ينقل
له الحجارة على كتفه . وهذا الرأي إنما بينه القرآن والحديث .

حدث بعد ذلك هدم وبناء وإصلاح قضت به الحوادث
من جهة ومرور الأيام من جهة أخرى ، وبلغ من تقديس
الكعبة في النفوس واحترامها بين الشعائر أن وضعت
لها الزخارف وكسيت جدرانها من الداخل والخارج بأستار
من حرير .

هذه الزخارف وهذه الأستار لم يقصد بها - في نظري -
إلى رفع شأن الكعبة أو جعلها رهبة ، فهذا الرمز الديني
المقدس إنما يزداد عظمة كلما ازداد بساطة ويزداد مهابة
كلما ازداد سداجة ، يدلك على ذلك أن كثيرا من الأماكن
ذات الأثر الديني لا ينقطع عنها الزوار وهي عاطلة من كل
زخرف ، جمالها وبهاؤها في تجردها من كل شيء . هذه الزخارف
وهذه الأستار لم تكسب البيت جديدا ، فقد كان محج الأمم

الاسلامية جمعاء قبل أن يزخرف ويكسى ، إنما هؤلاء
الذين هدام تفكيرهم إلى زخرفته وكسوته قصدوا إلى
صيانته والمحافظه عليه من الزمان يبتغون فضلا من الله
ورضوانا ، فما كان التقديس للاحجار والاستعار ، فالبيت
في حكمة وضعه وجمال بنائه ملء الدنيا ، وملء العين والبصر ،
وملء النفس والروح ، وهو آية لأسمى معنى من معاني التمسك
بائعقائد وتقدسيها .

تاريخ الكعبة

رجح المؤرخون أن الكعبة إنما أنشأها ابراهيم واسماعيل ولم يكن لها قبل ذلك وجود . وهم في ذلك يستندون ، على ما أوردنا من الكتاب والحديث ، الى أن الناس كانوا قديماً يعبدون الكواكب والأوثان ، ولم يكونوا يعترفون بالوهمية الخالق العظيم ، وكانوا يعبدون أشياء معينة معروفة ظاهرة غير محجوبة كالشمس والنجوم والأصنام ، يصنعونها ويعبدونها ، فلم يكونوا بحاجة إلى بناء بيت يجعلونه رمزاً لعبادة الله الذي جل عن رؤية العيون ، والذي قال لموسى إنك « لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » ، ولو أن ابراهيم كان قد وجد أهله يعبدون الله ويرمزون لعظمته ببناء الكعبة لما قال لأبيه آزر « أتخذ أصناماً آلهةً إني أراك وقومك في ضلالٍ مبينٍ ! » ،

وقد كان بينه وبين والده عتاب ، إذ وجدته يصنع الأصنام لقومه يعبدونها . وقد عني القرآن بذكر الكعبة الشريفة في عدة مواضع ، فلو أنها وجدت قبل آدم أو كانت من صنعه لما اقتضت آي الذكر الحكيم على ذكر الأصنام في معبودات آل ابراهيم .

فما هنالك بد من التسليم بأن الكعبة من بناء ابراهيم واسماعيل ولم يسبقهما أحد إلى ذلك .

ولقد اختلف المؤرخون فيما حدث للكعبة بعد ذلك ، فبعضهم يقول إنها بنيت في عهد العمالة ، ثم في عهد جرهم ثم بنيت بعد ذلك في عهد قريش ذلك البناء الذي حضره وشرفه رسول ﷺ ثم بناها عبد الله بن الزبير ، ثم أجريت بها بعد ذلك اصلاحات متتالية . ويقول بعض المؤرخين ان الكعبة بنيت ثلاث مرات : بناء ابراهيم ، وبناء قريش ، وبناء الزبير .

والحكم في صحة هذه الروايات يقتضى أولاً أن نعلم أن بين ابراهيم وقريش سبعة عشر قرناً ، لأنه مهما قيل في فن البناء وعظمته فلا يمكن أن تحمل الكعبة هذه القرون الطويلة قائمة بلا تغير . هذا فضلاً عن أننا لا نعلم عن يقين شيئاً عن هذا الفن قبل ابراهيم ، فلقد توالى على بلاد العرب أمم عربية متعاقبة ، منها : العرب البائدة ، ومنهم العمالة ، وعرب عاد وثمود ، والأنباط ، وأعقبهم القحطانيون رجال الفرات ، ودولة حمير ودولة سبأ . ويقال إن هؤلاء وأولئك شأننا في الحضارة ، فقد كانت لأولئك « أرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » ، وقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، فلما أمرهم

الله أن كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور
أعرضوا فأرسل الله عليهم سيل العرم فلما دالت دولتهم
وتعاقبت بعدها حمير والتبابعة فالاحباش فالفرس انتقلت زعامة
العرب من جنوب البلاد إلى شمالها، ومن هذه الدول إلى العرب
العدنانية من ذرية ابراهيم واسماعيل، ومن بينهم قبيلة جرهم
التي تزوج منها اسماعيل وكثر نسله وانتشر بنجد والحجاز
والشام والعراق وبقي منه بمكة آل قريش الذين ضمهم قصي بن
كلاب واجتمعوا على بني خزاعة حتى غلبوهم على أمرهم
واستولوا على مكة منهم، وكانوا قد اغتصبوها من ملوك جرهم
وتولى قصي بن كلاب أمر مكة وأمر الكعبة، فكانت له رئاسة
اللواء، ورئاسة دار الندوة، وحجابة الكعبة، وسقاية الحاج
ورفادته، وظل على هذا الحال وورثه أبناؤه حتى ولى الأمر
عبد المطلب والد عبد الله وجد رسول الله .

وهذه اللوحة التاريخية القصيرة تلخص سبعة عشر قرناً بين
أيام ابراهيم وأيام رسول الله، تخللها حكم جماعة من الأقوياء
وضعوا أيديهم على الكعبة، فإما أن تكون الكعبة قد بنيت
بحالة لا تصورها من المتانة ولم يقم العمالة وجرهم وقصي بن
كلاب من أمرها إلا بإصلاح بسيط إلى أن جاء حكم قريش
فبنوها، وإما أن تكون قد بنيت عدة مرات على الأسس

التي وضعها ابراهيم . وسواء أكان هذا أم ذاك فليس هناك ريب في أن هؤلاء يدا في أمر الكعبة ، فلا يعقل أن تبقى سبعة عشر قرنا على بنائها الأول ، ثم ان ابراهيم واسماعيل لم يكونا بناءين متمكنين في فن البناء ، فلا مرأ أن بناءهما يكون قصير العمر ، ولو أن غيرهما هو الذي بناها ، أو لو أن أحدا من رجال الفن قد شاركهما في بنائها أو لو أن أمر الفن في أيامهما كان ذا بال لأمكن ادراك مغزى الخلاف بين المؤرخين في أمر بناء الكعبة خلال هذه السبعة عشر قرنا . أفيسهل أن نصدق أن أصحاب إرم ذات العماد أو من كان لهم في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، أو قصى هازم بنى خزاعة قد مروا جميعا على الكعبة ينظرون إليها شذرا لا يعنون بأمرها وهم يقدسونها ؟

لقد كان من أهم مفاخر قصى بن كلاب أن كانت له حجابة الكعبة فكيف لا يعنى بأمرها ؟ لذلك أعتقد من مرور الزمان الطويل ، ومن تقديس رجال الحقب هذه للكعبة مع سلطانهم واقتدارهم أنهم لم يمروا عليها سكوتا مع ما لها من قداسة ، وأنها لم تأمن أثر السيول وتقلبات الجو في تاريخها الطويل .

وقبيل البعث وهن بناء الكعبة بسبب حريق شب فيها

فأتى على أشجارها وأخشابها واجتمعت قريش لبنائها على أن يكون دخولها وقفا عليهم لا يدخلها إلا قرشى . واختصمت قبائل قريش إذ ذاك فيمن يرفع الحجر فيضعه في موضعه ، وكادت تدور رحى الحرب بينهم إلا أن أبا أمية بن المغيرة أشار عليهم أن يتهادنوا حتى يحكموا أول داخل ، وما هي إلا برهة حتى دخل عليهم محمد الأمين ، وكان قد اشتهر بهذه الصفة فعرضوا عليه أمرهم فأمر بثوب فأحضر له فوضع فيه الحجر وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه . وقد أحدثت قريش تغييراً في بناء الكعبة فزادت في طولها وأنقصت من عرضها ، وهم يعلمون ذلك بأن قريشاً لما أرادت بناء الكعبة خرج الوليد بن المغيرة يبتاع أخشاباً لبنائها فوجد سفينة لتاجر رومي اشتراها منه واستدعاه لبنائها واجتمعوا على ألا يدخلوا في بناء الكعبة إلا ما كان كسباً حلالاً فلم يجتمع لديهم من الكسب الحلال سوى ما بنوا به ، فاضطروا إلى انقاص مساحة الكعبة توفيراً للنفقة التي أتوزعهم .

وجاء ابن الزبير بعد ثمانين عاماً فرأى بناء الكعبة قد وهن من نار اتصلت بها فأعاد بناءها بعد أن أضاف إليها ما أخرجته قريش منها وزاد في طولها ، وبقيت كذلك حتى جاء الحجاج

فهدم ما زاده ابن الزبير وأعاد الكعبة إلى حجمها الذي تركتها عليه قريش .

وحدثت بعد ذلك في عهود مختلفة تحسينات وزخارف للكعبة ليس من المهم الآن تكرارها فإني أقصد إلى بيان أصل الكعبة وتاريخ بنائها الأول والأخير . أما ما حدث ويحدث بعد ذلك من التحسينات فإنه مستمر على توالى الأيام مطرد مع الرغبة في تقديسها والمحافظة على بقائها في كل الأحوال والأزمان .

وهذه هي الكعبة التي يقوم على سدانتها ومفاتيحها بنو شيبه ابن عثمان وارث عثمان بن طلحة ، ولاهم رسول الله عليه السلام حين قال لعثمان « خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم ظالم »

وقد اختلف المسلمون فيما إذا كان رسول الله قد صلى في جوف الكعبة أم لا ، فقد نسب إلى بلال أنه قال ردأ على سائليه إن رسول الله عليه الصلاة والسلام صلى في جوف الكعبة بين العمودين الأواين ومن خلفه ثلاثة أعمدة ، وروى من جهة أخرى عن أسامة بن زيد وابن عباس أن النبي لم يصل في الكعبة .

وهذا الخلاف ليس في واقعة تاريخية يروونها فحسب ،

وانما يراد النظر اليها من حيث تحليل الصلاة في الكعبة وتحريمها .
وقد رجح المجتهدون أن محمداً صلى بها ، وهو المعقول ،
إذ لا يمكن أن نفهم العلة في أن يدخل رسول الله الكعبة
ولا يصلي بها ، والإجماع منعقد على أنها محل تقديس وتعظيم .
والكعبة على تقديسها فيها بعض مواضع لها قداسة
خاصة وهي الحجر الاسود ، والركن اليماني ، والملتزم . وفي
جوفها مكان لا أستطيع أن أعبر عن درجة قداسته ، وهو
المكان الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأمام الكعبة وحولها آثار أخرى كالخطيم ، وحجرا سماعيل
وسيرد ذكرها عند الكلام على المسجد الحرام .

لقد أجمعت الامم والشعوب المختلفة على مر الأيام والدهور
والحقب على احترام الكعبة حتى أنهم ليقولون إن موضعها
قبل أن يرفع قواعدها ابراهيم كان محل احترام ، فقد ذكر
المسعودي أن موضع الكعبة كان ربوة حمراء وكان العرب
يحترمونها . والذين يرجعون عمر الكعبة إلى ما قبل ابراهيم
يقول بعضهم إنه كان بمكانها معبد قديم للعائلة تلاشى أمره
قبل وصول ابراهيم إلى تلك الجهة ، فلما بناها ابراهيم أخذ اليهود
يتعبدون فيها على دينه ، وبالع أعراب النصارى في احترامها

ووضعوا بها الصور والتماثيل كما وضعوا على سطحها أصنامهم وأوثانهم يعبدونها ويتقربون إلى الله بعبادتها إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بإزالة الأصنام ومحو الصور . وكانت الكعبة أيام الجاهلية معقد آمال الناس من جميع بلاد العالم يحجون إليها في أشهر معلومات .

وقد ذكر لبيب بك البتانوني في رحلته الحجازية ، أن قبائل العرب كانت تجتمع قبل الحج : أهل الشمال في بدر ومجنة بمر الظهران على مرحلة من مكة ، وأهل الجنوب في ذى المجاز على مرحلة من عرفة ، وأهل الشرق في عكاظ بين قرن المنازل والطائف ، وقد اتخذها العرب سوقا بعد عام الفيل ثم أبطلت اكتفاء بسوق عرفة ومكة ، وكانت هذه الأسواق بمثابة معارض للتجارة ومؤتمرات للآداب ومكارم الأخلاق . وأظنك تتفق معي في أن العرب كانوا من أسبق الأمم إليها ، بل لقد سبقوا بها الحكومات المتعدنة بقرون عديدة . نعم سبقهم اليونانيون إلى مثل هذا الاجتماع في الاجتماعات التي كانوا يقيمونها لألعابهم وأخصها تلك التي كانت في أوليمبي في القرن الثامن قبل المسيح .

وإذن فقد كان العرب من أوائل الدول في الاجتماع ، بدءوه في الجاهلية بعكاظ وذي المجاز يحاضرون فيهما ويذاكرون ، وعقبوا بدار الندوة عند الكعبة ، فلما جاء الإسلام كان رسول

الله عليه الصلاة والسلام يذهب الى عكاظ يدعو فيها الى الاسلام ، وكانت الدعوة الى المساجد تقريراً لفكرة الجمع والاجتماع بين المسلمين يدعون الى الهدى ودين الحق ليظهره الله على الدين كله .

وقد بقيت للكعبة مكانتها في الاسلام بل لعلها زادت ، لأنها تطهرت من الأصنام التي كانت توضع على سطوحها والصور التي كانت تعلق بها ، بل من اليقين انها زادت رفعة واحتراما في نفوس العالم أجمع والمسلمين خاصة فقد صارت قبلة الصلاة لهم جميعا .
لقد بدأ المسلمون يصلون وقبلتهم بيت المقدس ، فجعل الله الكعبة قبلتهم في السنة الثانية للهجرة ونزلت الآية : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطرة » ، ولعلك اذا توجهت الى المدينة المنورة لترى آثارها فإنك تجد من بينها « مسجد القبلة » وهو على هضبة مرتفعة على مسافة بضعة كيلو مترات شرقي غربي المدينة ، وهو مكون من قسمين بقسمه الداخلي محراب نحو الكعبة بمكة وفي قسمه الخارجي محراب نحو المسجد الأقصى بالشام ، وهو الذي كان رسول الله صلى فيه قبل تغيير القبلة ذلك التغيير الذي كان موضع تساؤل اليهود ، فقالوا فيما بينهم : « ماؤلاًهم عن قبلتهم

التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجهه الله

بل الذي لا شك فيه ان الله سبحانه وتعالى أراد أن يجمع القلوب حول الكعبة فجعل الطواف بها فرضا من فروض الحج إلى بيت الله الحرام لتجتمع حولها الأرواح والنفوس فتري الناس على اختلاف درجاتهم يطوفون حولها محرمين لا فرق بين غني وفقير ، وكبير وصغير ، يطوف حولها الملوك كما يطوف الرعايا ، ويطوف الشيوخ كما يطوف الشبان ، والأغنياء مع الفقراء ، والأصحاء مع الضعفاء ، فأنت تجد حولها صورة كاملة ونموذجا حيا للحياة الدنيا بكل ما فيها من أحاسيس ووجدانات .

ولولا أن الكعبة بناها ابراهيم ثم جاء محمد فاشترك في بنائها وأزال منها الصور وهدم ما كان فيها من التماثيل وما على سطحها من الأصنام ، لولا أنها احيطت برعاية الأنبياء من بدء انشائها أفكانت تكتسب هذا التقديس وهذا الاحترام الباقي على الزمن ؟

لقد اقلق اليهود هذا الاحترام فبدلوا جهودهم في هدم الكعبة كما حاول بعض الامراء تحويل الناس عنها فما نجحوا ، فهذا تبع بن حسان ملك حمير اليهودي يريد هدمها فيمنعه أصحابه من اليهود عنه فيعدل ، وهذا يهودي آخر يحاول مرة أخرى

ذلك فيمنعه يهود من هدمها وهم حانقون من وجودها ، ولكن هكذا أراد الله حمايتها وبقائها خالدة التقديس والاحترام سواء أكانت تلك الحماية بالسيف أم بالإلهام ، وهذا أبرهة ملك الحبشة استعمر اليمن وبنى في صنعاء « القليس » ليحج الناس إليها ، ثم اتجه إلى مكة ليهدم الكعبة فأرسل الله إليه طيرا أبابيل ترميه وجنده بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كول ، فملك جيشه وبقيت الكعبة على روعتها وجلالها .

وهذا أبوطاهر القرمطي بنى في العراق دارا ليحج الناس إليها وحارب الحجاج القاصدين إلى مكة وقتل الكثيرين منهم ودخل إلى الحرم فاعتدى على من فيه وتقدم إلى الكعبة فاعتدى عليها وخلع من جدارها الحجر الأسود الذي وضعه رسول الله بيده الشريفة وذهب به إلى بلاده وبقي الحجر لديه حتى مات دون أن يستطيع تحويل الناس عن الكعبة ، فاضطر أهله إلى إعادة الحجر الأسود إلى مكانه . وكانت غطفان قد بنت حرما قبيل الاسلام ليحج العرب إليه فخاربهم زهير بن جناب ملك العرب حتى قهرهم ، وكل هذا يدل على ما للكعبة في نفوس الناس من قديم الزمان من احترام ، وزادها تعظيما تكرم رسول الله عليه السلام لها ، وكأني به وهو يطوف حولها وقد نشر حول أرجائها نورا ساطعا من نوره ، وعظمة من عظمته

وجلالاً من جلاله ، وكأني به وهو داخل من بابها وقد بارك
هذا الباب وكسا داخل الكعبة جمالا من جماله ، وطهارة
من طهارته ، وهدى من هداه .

وستبقى الكعبة على مر القرون يزداد بها المسلمون
تعلقا ما ذكروا موقف النبي في تشييدها ، وما ذكروا موقف
النبي في مالها من قداسة واحترام .

المسجد الحرام

بنى ابراهيم الكعبة بناء يرتفع تسعة أذرع وطوله ثلاثون وعرضه عشرون ، ولم يكن حوله سوى فضاء واسع لا يحده حد ولا يحيط به سياج ، ولا تجاوره دار ولا بناء ، وترك حولها أهله ودعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ويرزقهم من الثمرات ، ولم يكن حولها إذ ذاك من الناس أحد سواهم .
وإني لا تخيل اسماعيل وأمه يسكنان في هذا المكان وحدهما إلى جوار الكعبة ، لست أدري والليل قد أسدل ستره أى إحساس يدخل نفسيهما وقد طال عليهما الزمن حتى أخذ الناس يفدون عليهما كما أخذت القبائل تقبل على مكة للإقامة بين شعابها .

وإني كذلك لا تخيل مقامهما ماعسى أن يكون ، وما هيكله وما عسى أن يكون حجمه ، وماذا يحتاجان في هذا المقام ؟ من المسلم به أنهما كانا خلوا من الثروة فلا أثاث ليهما ، وأنهما لم يقيما بناء غير الكعبة يقيمان فيه .

ولقد كان لتوالى القبائل فى القدوم الى مكة والاقامة فيها أثره فى التبرك بالكعبة كما أسلفنا ، وكانوا يتنافسون فى العبادة

حولها وتقديسها ، وقد بلغ هذا التقديس مبلغا لم يبلغه شيء آخر .
ليس من شك في أن الناس يحترمون المساجد التي بنيت
بعدها ويدخلونها خاشعين لله ويمتنعون عن كل ما يخالف
الفضيلة وقوة العقيدة حين يدخلونها ، ولكن أى نسبة بين هذا
الاحترام واحترام الكعبة ؟ ! إن الكعبة هي أول بيت وضع
للناس ، ثم هي بعد ذلك رمز للعقيدة ، ثم هي فوق ذلك الدار
التي يحب على كل مسلم أن يزورها ويطوف بها ، ثم هي مع كل
ما ذكرت رمز اجتماع قلوب المسلمين واتحاد كلمتهم حول الدين
وحول القرآن وما في آياته من هدى ورحمة ، وبيان وحكمة .

لذلك لم يكن - على ما اعتقد - يشغل هاجر وابنها اسماعيل
لا اقامتهما حول الكعبة يعبدان الله ما أمرهما ، ويستلهمانه
الهدى والسداد ، والتوفيق والرشاد .

ولم يكن لمرور الزمان قبل قصي بن كلاب من جهة
والاسلام بعده من جهة أخرى دخل في تغيير ما حول الكعبة
وان كان قد حدث تدخل في أمر الكعبة نفسها ، فما كان هناك
مسجد وانما كان هناك مصلى « مقام ابراهيم » ، وما كانت الصلاة
على النمط الذي يصلى به المسلمون اليوم ، فهذه الصلاة
من وضع الاسلام وحده ، وكانت الصلاة لديهم قاصرة على
الطواف حول الكعبة .

فلما غلب قصي بن كلاب بن خزاعة على أمرهم واستولى
على مكة وعلى الكعبة لم يكن حول الكعبة دور ولا مساكن

ولم يكن قصى يرى ضرورة لوجود ذلك الفضاء حولها ، ماذا يصنع الناس به وهم لا يحتاجون لغير الطواف ! ، فدعا أهله للبناء حولها ، وكانوا يرون ان البناء بجوار الكعبة جرأة على قداستها واعتداء على احترامها ، فمن ذا الذى يجرؤ ان يبنى فى فضائها لتكون له حوائط بقربها ؟ لكنه قال لهم بعد ان انتصروا على خزاعة : « إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم ، وضرب لهم الأمثال فبنى دار الندوة ثم قسم بقية الفضاء بين قبائل قريش ، فبنى القرشيون دورهم حولها واتخذوا لمنازلهم طرزا تختلف عن طراز الكعبة ، فجعلوها دائرة والكعبة مربعة إجلالا لها عن التشابه ، وجعلوا ارتفاع منازلهم ضئيلا لا يسمو إلى علياء الكعبة ، وجعلوا أبوابهم متجهة نحوها لكي يستمتعوا وهم فى دورهم بمشاهدة عظمتها ومظهرها ، ويتفادون أن يكون بينها وبينهم حجاب ، وظلوا يتلاصقون بفضائها حتى ضاق الفضاء حولها ولم يتركوا منه سوى ما يسمح بالطواف للطائفين ، ولم يكن الأمر حتى فجر الاسلام ليدعو الى فضاء فسيح ، فلقد وصل حال المسلمين بعد الهجرة وقبل الفتح أن خافوا من الجهر بالصلاة حول الكعبة ، فقد كان الجهر بها ماثرا لا ضبطا لخصوم الاسلام ، ولم تنقشع هذه الغمامة حتى عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة الى مكة ومنع الهجرة بعدها .

لقد كان العرب قبل الاسلام لا يعنيه إذن من أمر
الفضاء سوى ما يسمح بطوافهم أو جلوسهم في الصباح أو
المساء يستظلون بظلال الكعبة ويتحدثون في أمور دينهم
ودنياهم ، فلما بنى قصي دار الندوة خصها بفئة من العرب وبقي
العامة يتلاقون حول الكعبة كما كانوا يتلاقون منذ الأيام الأولى.

وجاء الاسلام ووجبت الصلاة وأخذ المشركون
يطاردون المسلمين في صلاتهم ، فعمد هؤلاء إلى الصلاة
في دورهم ، فلما فتح الله للمسلمين وأمر رسول الله بمنع الهجرة
بعد الفتح جهروا بصلاتهم حول الكعبة ، ولكن ما عدهم ؟
لقد كان سكان مكة قليلين جدا في ذلك الوقت ، فإن الكثير
من المسلمين كان قد هاجر إلى المدينة في إثر رسول الله ، كما أن
كثيرا منهم انضموا إلى لواء الجيش الاسلامي الذي جاهد
في سبيل إعلاء كلمة الله وسبيل نصرته الدين حتى لقد اندفعوا
في الحرب في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وجاهدوا
الفرس والروم حتى غلبوهم وفتحوا ديارهم ، لذلك لم يشعر
المسلمون بحاجة إلى توسيع المطاف في مدى سبعة عشر عاما
بعد الهجرة أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ولم يكن هذا المطاف قبل الاسلام يدعى مسجدا فأطلق عليه
المسجد الحرام بعد الاسلام ، وقد سمي بهذا الاسم في مواضع كثيرة من

القرآن الكريم « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » ، « قد نرى قلبك وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام » ،

هذا المسجد الذي بدأ وهو بضع قصبات لا يجد من يملؤها أو يستر بعضها من المصلين قد غدا الآن حوالى الأربعة الأفدنة فضاء خالصاً يتزاحم فيه المصلون حتى لتجد من العسير جداً أن تمر فيه بقدميك ، ولقد يبلغ به الزحام أن تملأ ابوابه حتى ليستحيل عليك ان تمر فيها ، ولقد تقف أوقاتاً طويلة حتى تجد منفذا تدخل منه أو تخرج .

ترى ماذا يقول أبو بكر لو صح له الآن أن يشهد هذا المنظر الجليل ؟ بل ماذا يرى في هؤلاء المتزاحمين وهم لا يبلغون الا قليلاً من المسلمين إذا ما هيء له أن يذكر أنهم كانوا في صدر الإسلام اذا غاب منهم واحد ذكره ؟ أفيستطيع المرء مهما أوتى من اليقظة وصدق النظر والفراسة أن يتعرف الى قليل أو كثير من هؤلاء الناس ؟ لست أحدثك عن الشمس المحرقة تسلط نارها عليهم أيام الصيف وهم يقيمون الصلاة لا يجرهم حر ولا برد ، ولا يمنهم زحام ! انما أحدثك عن أيام الصلاة الأخرى في الفجر أو في الظهر أو في العشاء ، وأحدثك عن أولئك الذين يجعلون المسجد الحرام

سكننا لهم لا يغادرونه ، وعن الجموع الخاشعة التي تلقاها كلما دخلت في أى وقت من نهار او ليل .

ماذا يقول اليوم أولئك المسلمون الذي عارضوا عمر الخطاب عند ما أراد ضم دورهم الى المسجد الحرام وهو يدفع لهم ثمنها من بيت المال ؟ أفكانوا يفرحون ويطربون لهذا النصر العظيم فيقدمون دورهم حسبة وقربانا لله تعالى ؟ هذا أغلب ظنى ، فلقد توالى على المسجد الحرام من إهبات المسلمين ما جعله أرقى ما يكون بناء ، وأوسع ما يكون فضاء ، وأجمل ما يكون نورا وضياء ، وما هو لاء بأكثر إسلاما من أولئك وإنما لعلمهم وقد طلب أمير المؤمنين اليهم دورهم قد أخذتهم العزة وظنوه يريدونها عنوة فلم يخضعوا له إلا قهرا ، أما الآخرون فقد نزلوا عنها في سبيل الله وحبها لدينه .

ماذا يقول قصي بن كلاب وقد زين لقريش أن يبنوا دورهم حول الكعبة لا يتركون حولها إلا مطافا ، فهل لو علم شيئا من حال الكعبة اليوم أفكان ينصح أهله بالبناء حولها ، وقد كان يتفانى في نشر دين الله ورفع لوائه ؟ ؟

هذا المسجد الممتد طولا وعرضا ، المربع الاضلاع ، المرتفع الحوائط ذو البواكى والعمد ، الممتلىء بالثريات الكبرياء ، الباهر المظهر ، كان في صدر الاسلام صغير الحجم ضئيل

المساحة فلما هاجر النبي وصحبه تركوه كما كان وبقى على حاله إلى أن ولي الخلافة عمر بن الخطاب وكان بالمدينة وأصيبت مكة بالسيل العظيم ، سيل أم نهشل^(١) ودخل السيل إلى المسجد الحرام واقتلع مقام ابراهيم الخليل من موضعه ونقله إلى أسفل مكة ، فلما جف الماء وجد المقام وقد ترحزح فأعيد إلى موضعه ، وأبلغ الأمر إلى عمر بن الخطاب فباله الأمر وجاء رضى الله عنه مسرعا إلى مكة المكرمة ، وكان أول ما قام به أن حقق موضع حجر مقام ابراهيم ، وأمر بإعادته إلى موضعه واطمأن إلى ذلك .

رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ ذاك أن المسلمين قد زادوا ، وأن المسجد يزدحم بهم وقت الصلاة فلم يربدا من أن يأمر بالدور التي حوله أن تهدم ويضم مكانها إلى المسجد الحرام ، رأى رضى الله عنه بواسع حكمته أن أمر جموع المسلمين أهم من أمر أفرادها ، وهكذا تعمل الحكومات للجماعات ، فراعى بذلك مصالح الجماعات ومصالح الأفراد ، وأى مصلحة لجموع المسلمين وأفرادهم أهم من مصلحة اجتماعهم في الصلاة ، فهذا المسجد تنتفع به الجماعات والأفراد على السواء ، وما الجماعة إلا عدد من الأفراد .

(١) سى بسيل أم نهشل لانه اجترف أم نهشل بنت عبيدة ابن سعيد بن العاص ابن أمية بن عبد شمس وماتت فيه غمى باسمها .

لكن أصحاب الدور قد جزعوا لهدمها وضمها، وعارضوا في ذلك مع أنه رضى الله عنه كان يشتريها ويدفع ثمنها، ولهذا أبوا أن يبيعوا وأن يقبضوا فأمر بها أن تقوّم وتودع أثمانها في خزانة الكعبة، ثم أمر بها أن تهدم ويبقى الثمن أمانة لأصحابه من شاء أخذه فسرعان ما أخذوه، وبما نصحهم به إذ ذاك قوله « لقد نزلتم بفناء الكعبة وبقيتم به دورا وأنتم لا تملكون هذا الفناء، وما نزلت عليكم الكعبة في سوحكم وفنائكم، وبني رضى الله عنه حائطا حول المسجد كان أقصر في القامة قليلا فكان أول من أحاط المسجد الحرام بالبناء.

وهكذا كان حزم عمر وعزمه أول ارادة وجهت لبناء الحرم المكي، وهكذا كان عمر حازما في كل ما قال وكل ما فعل.

توالى الاسلام في الانتشار، وتوالى المسلمون في الازدياد، وتكاثر المصلون فلم يك بد على مرور الايام من زيادة مساحته، وإلا فكيف يمكن أن يصل سبعون ألفاً أو يزيدون في المسجد الذى أمر به أمير المؤمنين عمر فلم يك بد لعثمان بن عفان ثم لعبد الله بن الزبير ثم لعبد الملك بن مروان ثم لابنه الوليد، ثم لأبى جعفر المنصور، ثم للخليفة محمد المهدى العباسى، لم يكن هؤلاء جميعا بد من توسيعه حتى بلغ الكمال والجلال في أيام المهدى.

لقد حج الخليفة محمد المهدي العباسي سنة ١٦٤ من الهجرة ووجد الكعبة في جانب من المسجد ، لا في وسطه كما هي اليوم فلم يعجبه وضعها وعزم على هدم الدور المجاورة لها من الجانب الآخر لتقع الكعبة في وسط المسجد ، فأمر بالمهندسين قدشاوروا فيها بينهم وقرروا أن ما اعتزمه غير ممكن ، لأنه يجعل المسجد ليس بآمن من السيول ، وقالوا : إن وادي مكة به سيول قوية العزم ونخشى إن حولنا الوادي من مكانه ألا يتم لنا ما نريد ،

ولكن لمن يقول المهندسون ذلك ؟ إنه رجل آمن بالله ووفى في هذا الايمان ، ثم هو يبتغي عملا صالحا للمسلمين يعود بالنفع الخالص لدين الله ، ويخلد له ذكرا حسنا عند الناس ، وهو قوى العزم لا تقف العقبات في طريقه ، فقال لهم لا بد لي من توسيع المسجد حتى تكون الكعبة في وسطه ولو أنفقت فيه جميع ما في بيوت المال ، فرضخ المهندسون لأمره ونفذوا عزمه وهدموا ما جاور الكعبة من الدور ، وبلغ ثمن الذراع الواحد منها خمسة وعشرين دينارا ، ولم يقتصر على ذلك ، بل أبدع في تنسيقه وإن كان لم يستمتع بهذا الابداع ، فقد عاجلته المنية وتم في عهد ابنه موسى الهادي ، وهكذا كانت ثمرة زيارة المهدي كشجرة الزيارات التي سبقها جميعا ، وكانت جهود المهندسين الذين نفذوا مشيئته أزخر الجهود نفعا .

مَاذَا بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

لست معتزما أن أوسع شرح محتويات المسجد الحرام ، فلو أنى فعلت ذلك لمألت مجلدا ضخما ليس لدى من الوقت ما يكفي لإعداده ، وقد سبق أن قلت إنه ليس من المهم إحصاء المصاييح التي يتألق نورها ليلا في أرجائه الواسعة ، ولا إحصاء قطع البلاط التي رصف بها ، وإنما أضع تحت بصرك لمحة ترسم في خيال المطلع صورة يدرك منها ما لا بد أن يلاقيه من هيبة عند ما يصل الى هذه الديار المقدسة ، وما عسى أن يشاهده من جلال هذا المسجد العتيق ، ولكنى إن أترك القارىء خالى الذهن من محتويات هذا الحرم بعد أن تحدثت طويلا عنه وعن تاريخه ، وعن الكعبة التي تتوسطه خصوصا أن بالمسجد أشياء لها عظمتها ولها من التاريخ والشهرة ما يدعو إلى الاطناب فيها والتنويه بها .

وأذن فلا بد أن أضع أمام الأنظار مساحة المسجد الحرام الذى بدأ صغيرا ، واستمر ينمو على الأيام حتى بلغت مساحته الآن أربعة أفدنة وربع تقريبا ، وليس هناك بد من أن أرسم لك صورة عامة للمسجد وما صار اليه ، ومن أن أتحدث عن مقام إبراهيم صاحب هذا المؤسس العظيم الذى جمع حوله

ملايين من المسلمين بعد الاسلام وغير المسلمين قبله ، ولا بد أن أتحدث عن زمزم تلك العين الجارية التي تسقى آلاف الناس في كل عام منذ زمان طويل ، وملأت شهرتها الآفاق .

وسأحدث لك عن دار الندوة وعن مقامات الأئمة وعن الحطيم ، وعن الإضاءة في الحرم ، وعن منابرہ ، وسأجعل من نفسي رساما يصور هذا البناء الجليل ، وسأقصد في القول ، وسأجعل في البيان ، وسأقتصر في الذكر على رسم صورة تعرف منها أن الحرم يضاء بالكهرباء ، ولن أضيق بذكر مسدى هذا الفضل . وستعرف مني أن للحرم مमार تحت بواك مرصوفة بالبلاط والكنك لا تنتظر مني أن أدخل في تفصيل هندسى أو أضيع وقتك في وصف الوضع الفنى للبناء ، ولا تنتظر مني كذلك أن أذكر لك عدد أعمدة الحرم و محاسن أبوابه ، فليس هناك ما يدعو لأن أخوض في بحث جدلى عن عدد ابواب الحرم ، وهل اسمها أبوابا أو نوافذ ، ويكفى أن تعرف أن للحرم ستة وعشرين بابا ولبعض الأبواب أكثر من فتحة ، كما أن لبعضها ثلاث فتحات ، ولبعضها خمس فتحات ، وقد بلغت الفتحات جميعا سبعا وأربعين .

ليس يفيدك كثيرا أن تعرف عدد أبواب الحرم ، ولكنك ستدرك بداهة أنها كثيرة ، فإن مسجدا مساحته أربعة افدنة

وربع متصل بعدة شوارع لا مناص من أن تكون له عدة ابواب . على أن أكثر هذه الابواب شهرة هو ابواب : السلام ، وباب العمرة ، وباب ابراهيم ، وباب علي .

وباب السلام هو الباب الذي تدخل منه الى الحرم أول ما تدخله عندما تعتمر الطواف ، وهو باب الحرم الذي تدخل منه للتحية والسلام ، وهو معروف ايضا باب بنى شيبة ، وكان قديما يطلق عليه باب بنى عبد شمس .

أما باب النبي فهو الباب الذي كان يخرج منه عليه السلام الى منزل زوجته خديجة رضى الله عنها .

وقد سبق ان قدمت أن المسجد الحرام مربع الشكل تقريبا محاط من الداخل بأعمدة وبواك : مسقوف الجوانب ، له وسط صحن ، واسع الأرجاء لا سقف له ، فهذا البناء الجميل ممتلئ بهذه الابواب فى جميع جوانبه ، وهذه الابواب تزدهم ازدحاما لا نظير له فى أوقات الصلاة ، ولقد اعتدت اثناء إقامتى بمكة ان أدخل من باب العمرة لقربها الى منزلى وأخرج منه أو من أحد الابواب المقابلة للتكية المصرية حيث كنت أقضى فيها أكثر الوقت ما بين المغرب والعشاء ، فما كنت أشق نفسى طريقا إلا بشق النفس ، وما كنت أصل الى الطريق الا بعد وقت

طويل ، ولقد تأخرت قليلا في يوم من الأيام وقت صلاة الظهر ، ثم توجهت الى باب العمرة وكانت الصلاة على وشك القيام فاستحال على الدخول ، واضطرت الى الوقوف بالباب حتى انتهى الناس من صلاتهم وبدءوا ينصرفون فدفعت بنفسى بين أفواجهم حتى دخلت بمجهود عنيف بعد الظهر بنصف ساعة هذه أم حاشدة وافدة من كل صوب من أنحاء المعمورة يحجون بيت الله ، فهم متزاحمون باذلو النفوس في اغتنام الفرصة لقضاء كل أوقاتهم في العبادة ، وهم يرون ان هذه العبادة لا تكون إلا بالبقاء في الحرم المقدس طوال الاوقات والواقع أنه ليس أشهى للمقيم في مكة من قضاء وقته كله في المسجد الحرام ، ولولا طبيعة الحياة التي تستلزم الطعام والنوم والتريض والزيارة لما غادر أحد من الحجاج الحرم لحظة واحدة .

إن بناء الحرم جميل مزخرف ، نظيف متسع الأرجاء ساطع الضياء ذو جمال وبهاء ، ثم هو قبل ذلك بيت الله وسياج الكعبة وهو أرض زمزم ، وأول مقام لإبراهيم ، وقد كان لترك وسطه دون سقف حكمة بالغة جعلت من هوائه نسima عليلا ينعش النفوس في أوقات الحر الشديد . وما كان يمكن أن يغطي هذا المسجد بأى سقف وإلا لاختنقت فيه أرواح آلاف الداخلين

مقام ابراهيم - هو آية بيته من آيات الله في الأرض، قال تعالى
« إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين »
فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ ابراهيم ، وقال أيضاً « واتخذوا من مقام
ابراهيم مصلى » وهو أول ما أسس من مذبات المسجد الحرام
وهو الحجر الذي يصلى عنده الأئمة ، وهو الذي أقامه ابراهيم
عليه السلام عند بناء البيت ، والظاهر أن المقصود من الآية
الشريفة هو المصلى وليس الحجر ، لأن الحجر بطبيعة حاله
لا يتسع لإقامة الصلاة عليه ، فقد صلى عليه الصلاة والسلام
خلف المقام فكان المقام بينه وبين البيت ، وربما كان الحجر
المعروف إلى الآن بمقام ابراهيم موضوعاً في مكان قيامه
علامة عليه .

لقد اختلف المفسرون في تحديد مقام ابراهيم الذي ورد
ذكره في القرآن الشريف ، فقال بعضهم إنه يشمل مناسك الحج
وخصصه بعضهم بالحجر الذي قام عليه ابراهيم وقت بناء
الكعبة ، وقال آخرون إنما هو مكان صلاة النبي عليه الصلاة
والسلام خلف الحجر ، وفي رأينا أن هذا أصح ، لأنه ليس
هناك ما يسند أولئك الذين قالوا بأن المقام هو الحجر كله كما
أن قصر المقام على الحجر يجعل من المتعذر تنفيذ الأمر الكريم
باتخاذ مصلى ، لأنه كما قلنا صغير الحجم .

إن هذا المقام هو من أبرز ما في الحرم من الآثار ، وهو طبعاً ليس محل مقارنة مع آثار أخرى إذا استثنينا البيت العتيق ، الكعبة نفسها ، ذلك لأن أقدم الآثار عهدا هو أقدم من الكعبة نفسها . أليس قد قام عليه إبراهيم عند بناء الكعبة ؟ ثم هو من الآثار التي أبقي الله عليها وحفظها من العدوان والحدثان كما حفظ الحجر الأسود ، وعلى الرغم من أن السيول قد أحاطت به ونقلته من مكانه فإنه قد أعيد إليه . بل قد أعيد في مكانه الأول ، ولا يزال ماثلا في أذهاننا ما حدث به الأذى من أنه لما طغى سيل أم نهشل على الكعبة وأخذ المقام وأبعده عن مكانه ووصل الخبر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسرع إلى مكة وأعادته إلى مكانه بعد أن استوثق منه .

والمقام موجود تحت قبة عالية يرتفع على أربعة أعمدة دقيقة من الحجارة ، بها أربعة نوافذ من الحديد مدخلها من الجهة الشرقية ، ويقع خلفه المصلى ، وهي مزخرفة من باطنها بلون ذهبي جميل .

زمزم — مياه زمزم معروفة ولها شهرة واسعة ، قيل فيها إنها مياه معدنية صالحة للشرب ، وقيل إنها في حاجة إلى إجراءات صحية تجعلها صالحة للاستشفاء ، ومع ذلك فإن حالتها الحاضرة

موضع ثقة جميع المسلمين وتقديسهم ، وموضع آمال المرضى منهم ، فهي مباركة للأصحاء شافية للمرضى . وقد بلغ من تقديس المسلمين لها أن جعلوها مشروبهم طوال وجودهم بمكة ، بل إنهم تارة يشربونها بدون ظمأ لمجرد إزالة الأمراض والآلام وهم يسعون كل السعى للاستحمام بها كلما استطاعوا ، والتوضؤ بها ما أمكنهم ، وهم لا يعتقدون أن بها مواد معدنية شافية ، بل يشربونها لأنها مباركة . أليست قد نبعت لإرواء ظمأ اسماعيل واسماعيل نبي وابن نبي ، فكيف لا تكون مباركة . ولذلك يهتم الحجاج جميعا بحملها إلى بلادهم عند عودتهم يقدمونها لذوى قرباهم والمخلصين من أصحابهم .

لست أدري ماذا تقول عن أيها القارىء إذا عرفت اننى اقدر كثيرا معتقد هؤلاء المسلمين فى شأن زهزم والتبرك بمائها . ولعلمهم معى يقدرون تقديسها هذا التقدير لما اكتشف وجودها من ظروف هى مقدسة فى ذاتها .

لقد قدمنا عند الحديث عن انشاء الكعبة أن ابراهيم عليه السلام ذهب باسماعيل ووالدته إلى مكانها واسماعيل رضيع وتركهما وانصرف ، فقفت أم اسماعيل فى أثره تقول له : يا ابراهيم اين تذهب وتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه انيس ولا شيء ؟ فلم يلتفت اليها ولم يرد عليها ، فسأله : هل الله

جل جلاله أمرك بهذا ؟ فقال نعم ، ثم استمر في طريقه إلى أن اختفى عن نظرها وقال : ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . . . ، وكان مع زوجته بعض ماء ظلت تشرب منه حتى نفذ وظمى اسماعيل وبلغ به الظمأ مبلغا آلمها وآلم عواطفها وهى أم أمام وحيدها ، فانطلقت تبحث عن نبع ماء أو انسان لديه ماء ، وكانت فى نفس الوقت تفر من النظر إلى وحيدها وهو يتلوى من الظمأ فى وقت لا حول لها فيه ولا قوة ، ثم أخذت تتردد بين جبل إلى الصفا والمروة حتى قطعت ما بينهما سبع مرات ، وقيل إن هذا هو السبب فى السعى بين الصفا والمروة حتى انبعث نبع زمزم وسقت ابنها منه .

وهنا أروى لك قصة جميلة عن زمزم كتبها د حسين باسلامه ، فى كتابه : عمارة المسجد الحرام ، قال :

لما وقفت ام اسماعيل على الصفا ثم هبطت منه حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سمعت سعى الانسان المجهد حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ، وفعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو مال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه

وتخفيه بيدها هكذا أى تجمععه ، وفى حديث على فجعلت تحبس الماء ، فقال دعيه فإنها رواء وجعلت تغرف من الماء فى سقاها وهو يفور بعد ما تغرف ، قال ابن عباس قال النبى عليه السلام « یرحم الله أم اسماعيل لو تركت ، أو قال ولو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينا معينا ، قال شربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فان هذا بيت الله لهذا الغلام والله لا يضيع اهله . . . الخ

وليس غريبا أن نقرر أن زمزم هى الأصل فى قيام مكة فى هذا المكان ، فما كان يمكن ان يسكن احد فيه دون ماء . وكان أول من جاور اسماعيل هناك آل جرهم ، فلقد مر منهم جماعة فشاهدوا الماء فاستأذنوا أم اسماعيل فى أن ينزلوا الى جوارها فأذنت لهم ، وهكذا بدأ عمران منطقة مكة .

وزمزم عين لا تجف ، وان كانت قد ردمت ردحا من الزمن وتهدم بئرها الا انها اعيدت لمكانتها الاولى ، وهى معين لا ينضب ، تحلو كلما زاد أخذ الماء منها ، وهذا أمر مشاهد فى ذاته ، فإن استعمال الماء يكون قليلا فى أيام السنة الى أن يبدأ موسم الحج فيزيد طلب الماء ، ولهذا نجد ماءها يحلويوما بعد يوم فى أيام الحج .

ولعل من المناسب أن نذكر هنا أن هناك مشروعا على

وشك النفاذ يقوم على ترشيح مياه زمزم بطريقة صحية لاستعمالها للاستشفاء كغيرها من العيون المعدنية في البلاد الغربية نظرا لما انضح من صلاحيتها لهذا الغرض .

قلت آنفا انى أعتقد مع المعتقدين فى قدسية ماء زمزم بشكلها الحالى ، فى مياه نبعت لنبى ابن نبى ، ومع ذلك فقد ورد فى البخارى من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : ما كان لى طعام الا ماء زمزم اجزى به ثلاثين ما بين يوم وليلة فسمنت حتى تكسرت على بطنى ، وجاء فى صحيح مسلم من حديث أبى ذر : إنه طعام طعم ، وقال ابن عباس : خير ما على وجه الارض ماء زمزم ،

وقد ورد فى الرحلة الحجازية للرحوم لبيب البتانونى بك أن هذه المياه فيها فوائد معدنية ، وأن قليلها يفيد وكثيرها يضر وهو يرى أن خدمة العين يبالغون فى فوائدها ترغيبا للحجاج فى تعاطيه . وقد تعرض لنقد البتانونى بك فى رأيه الاستاذ حسين باسلامة نقدا شديدا ، ولكنى لا أرى لهذا النقد الشديد محلا ، لأن البتانونى بك لم يبعد زمزم عن الفائدة .

وعلى أى حال ليس من شك فى أن زمزم من العيون الجارية العظيمة الفائدة ، الذائقة الصيت فى أنحاء العالم .

مقامات الأئمة - لكل إمام من أئمة المسلمين الاربعة دأى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، مقام بالحرم الشريف يصلى فيه تابعوه ، وأحسن تسمية لهذه المقامات ، المواقف ، حتى لا يظن أحد أنها أطلق عليه عرفا المقام الذى يدفن تحته ولى كريم ، وهذه المقامات أو المواقف أو الاماكن قديمة العهد من بدء الاسلام تقريبا .

محتويات أخرى للمسجد الحرام - يحتوى المسجد الحرام بعدما ذكرنا على الحطيم ، وهو بناء مستدير على شكل نصف دائرة بينه وبين جدار الكعبة أرض معروفة بالحجر ، مرصوفة بالرخام ، وهم يطلقون الحطيم على هذا الجدار المحيط بالحجر ، ويطلقونه على المكان المحصور بين الكعبة والحجر من جهة ، ومقام ابراهيم وزمزم من جهة أخرى .

والحجر هو المكان الخالى المحصور بهذا الجدار ، وبعض هذا الخلاء قد تركه ابراهيم عليه السلام إلى جانب البيت وبعضه كان من المساحة التى بنيت عليها الكعبة ، فلما أعاد آل قريش بناءها تركوا منها هذا الجزء ، وكان الزبير قد أعاد بناءه ولكن الحجاج أعاد إخراجه ، على ما قدمنا .

ويوجد بين باب الكعبة والركن العراقى ثغرة يطلقون عليها اسم « المعجنة » ، يقولون إنها هى التى كان يعد فيها ابراهيم ملاط البناء .

لقد أطلعنا ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن الحرم كان له منبر
فاخر يقوم في وسطه تحت العراء، وله عدة منارات في جوانبه.

وهذا المنبر طبعاً هو الذي يقف عليه الامام حين يخطب
الجمعة، ولست بحاجة إلى أن أتحدث عن بهاء هذا المسجد العظيم
ومظهر المسلمين حين اجتماعهم فيه، ومظهرهم وهم داخلون
اليه من كل باب، ومظهرهم وهم منصرفون إلى دورهم عقب
تعبدهم الطويل كل ليلة، والأضواء تتألق في سماءه وفي جوانبه
فذلك شيء يحل عن الوصف.

سنصلي كثيراً سنصلي الجمعة في الحرم، وسنخرج الآن
للسعى بين الصفا والمروة.

بين الصفا والمروة

الصلاة في الحرم

لقد اتبهينا من كل شيء داخل الحرم أول وصولنا إلى مكة كما سبق أن قدمنا، وكان علينا أن نسعى بين الصفا والمروة، ولقد كان الجهد آخذا منا أبلغ مأخذ، فقال أحد رفاقنا مازحا: ما علينا لو ذهبنا للراحة، فما السعى بين الصفا والمروة إلا سنة يمكن تأجيلها، فنظرنا إليه شذرا وقلنا: ما في العبادة من عازلة. إنما قد أتينا هنا لنقوم بالواجب والسنة معا، ومن ذا الذي يصبر على ترك شعيرة كهذه ولو كانت سنة مادام في قلبه حب مولع، وفي نفسه رغبة أكيدة في الاستزادة من شعائر الدين: وإن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم، قصدنا إلى باب الصفا، وخرجنا منه إلى الصفا، وصعدنا إليه على درجات مبلية منتظمة، وجعلنا البيت العتيق قبالتنا وهللنا وكبرنا ودعونا ثم نزلنا قاصدين المروة، حتى إذا وصلنا إلى العمود

الأخضر هرونا إلى أن وصلنا إلى العمود الثاني فأعدنا سعيينا
سيرته الأولى حتى وصلنا إلى المروة ، وفعلنا كما فعلنا عند الصفا
ونحن فيما بينهما لا ينقطع لنا دعاء .

وهكذا حتى أتممنا سبعة أشواط ، ووصلنا إلى صالون حلاق
لخلق لنا بعض شعر رأسنا وتحللنا من الإحرام ، وأصبح حلا لنا
كل ما كان محرما .

الله اكبر . لقد قطعنا مرحلة طويلة من مراحل الحج ، وسنصبح
في مكة كأهلها نقيم بينهم حيث ولد رسول الله عليه السلام .

كان حديثنا أثناء انصرافنا إلى منازلنا مع صاحبنا الذي
قال إن السعي بين الصفا والمروة سنة لا وجوب فيها ، فكان
حديثا هادئا ، إذ لا جدال في الحج .

قال معتذرا : أنا قلت ما قلته مازحا وإلا فأى قلب يطاوع
صاحبه على السكوت عن السعي حتى ولو كان مجرد استحباب ،
وما دمتم تريدون المناقشة في هذا فتعالوا نتناسى حماسة
العواطف وما أنتم مدفوعون له من حب العبادة والتفاني
في الاستزادة منها :

ألم يقل الله تعالى : فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه
أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكرٌ عليمٌ ،

أفليس معنى هذه الآية الشريفة أن السعى سنة حض الله سبحانه وتعالى على أدائها ولم يأمر جل جلاله بالتزامها ؟

يرى الإمامان مالك والشافعي أن السعى واجب، ومن لم يسع كانت عليه الفدية . ويرى غيرهما أن السعى تطوع وليس على تاركه من وزر ولا فدية . والحقيقة أن المناقشة في أمر السعى بين الصفا والمروءة لا محل لها ، اذ هي مناقشة نظرية ، فليس هناك من يسافر لأداء فريضة الحج محتملا صعاب السفر وكثير النفقة ويذهب إلى المسجد الحرام مأخوذا بجلاله وجماله ثم يفكر بعد ذلك في أن يسعى أولا يسعى ؟ إن أمر التخلف عن السعى لا يدور بخلد أحد . ولو لم يكن السعى فرضا بالنص لأصبح فرضا بالإجماع فما من مسلم يصل إلى مكة إلا يسعى بين الصفا والمروءة من جموع الملايين الذين حجوا في مختلف السنين . لذلك لا أجد جدوى لهذا البحث ، بل لا أجد مسوغا له .

لقد كان في شوارع المسعى آلاف من الناس يتزاحمون بينهم العجوز والمرضى والرجال والنساء فما تذر أحد من الزحام ولا حاول التخلف بسببه .

بل إن الذين اشتد بهم المرض قد استأجروا من يحملهم على أكتافه يطوف بهم السبعة الاشواط ومن كان ذا ميسرة سعى أشواطه راكبا سيارة أو دابة ، وما فكر واحد في هذه

المناقشة البيزنطية ولا حاول أن ينتحل الأعذار. إن العبادة في مكة مبعثها حالة روحية لا قبل لأحد على دفعها . بل إن الكثيرين ليؤدون الشعيرة عدة مرات ، فمن ذا الذى بلغ به صغار العقل حدا يبحث فيه عن وجوب السعى أو جوازها ؟

وإذا قيل إن هناك أناسا يرغبون فى الحج ويعجزون عن السعى لمرض ثقيل مثلا فما شأننا بهؤلاء وهم غير مكلفين بالحج لأن حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

فمن وجب عليه الحج كان قادرا ، ومن كان قادرا فليس له أن يناقش فى هذا الموضوع ، لذلك تجدنى لأستسيغ مخالفة رأى مالك والشافعى ، ولا أتمشى مع آراء الآخرين ، واعتقد أن الآية لا تفسر إلا على هذا المعنى ، وأما ظاهر لفظها فهو كغيره من النصوص العديدة التى هى الطابع المعروف عن أدب القرآن الذى يتجلى فيه عطف المولى القدير على عباده .

الصفاء والاروة مكانان مرتفعان أو لهما فى شارع المسعى وثانئهما فى آخره يطلق عليهما فى العرف «جبلان» ، والواقع أن كلا منهما مكان مرتفع عن سطح الأرض بأكثر من متر ونصف مستطيل الشكل تقريبا مساحته قرابة عشرين مترا مربعا تقريبا ، يصل المرء إليه على درج من درجات السلالم المنزلية ، ويفصل بينهما شارع مرصوف طوله أربعمائة متر تقريبا ولا شك أنك تشعر برهبة المكان حين تصعد إليه وحين تنزل منه .

والشارع الموصل بينهما جميل نظيف مرصوف مسقوف
لا مشقة في قطعه سبعة أشواط تبلغ ثلاثة كيلو مترات تقريبا
إلا أن الحكومة تركته سوفا تجارية ممتلئة بالحوانيت على
الجانبيين وتركته فيه ممرا للسيارات .

هذا الشارع له قدسيته، وكان يجب أن يكون خاليا من التجارة
استكمالاً لوقاره وإفساحاً للآلاف الذين يرتادونه كل يوم .
وكان يجب ألا تمر به السيارات حتى لا يتعطل السير فيه أثناء
السعي وحتى لا يتعرض المارة للخطر وهم مشغولون بالعبادة ،
وهو للعبادة فيجب أن يبقى للعبادة ، ولا شيء غير العبادة
أما أن يترك هكذا يمر فيه الساعون من جانب ويجلس التجار به
من جانب ويمر الشارون بين هذا وذاك فأمر يجعل السعي فيه
شبه عسير ولولا شغف الناس بالسعي والعبادة واندفاعهم اليه
عن رغبة لكان المرور معطلا لهذا العمل العظيم .

لقد ورد في بعض المراجع ان الصفا مرتفع عن الأرض
ثمانى درجات، وفي كتاب ابراهيم رفقى باشا أنه مرتفع عن الأرض
أربع درجات، وفي غيره أنه مرتفع عن الأرض درجتين فقط .
والعلة في ذلك ظاهرة فإن ردم الشارع قديما ورصفه
قريبا قد رفعا من مستواه وانقصا من عدد درجاته وذلك بالطبع
ما هون على الحجاج السعي ، ولعل ارتفاعه القديم هو الذى
جعل اسمه عرفا ، الجبل ، لعلوه فيما مضى .

بهذا تذوقنا العبادة والخضوع، وزدنا إيماناً وخنوعاً لله مالك الملك ذي الجلال .

ما أظن شخصاً يذهب إلى الحجاز ويستكمل هذه الشعائر ويفعل ما يفعله الناس جميعاً على اختلاف درجاتهم وأعمارهم ويذكر أن الناس عند الله سواء ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وأن كثيراً ممن نراهم حفاة عراة خير عند الله آلاف المرات من ذوى المال واليسار ، إلا صفت نفسه وهذبت واستضاءت بنور الإيمان واليقين .

ورب فقير معدم هو عند الله أعلى مقاماً من غنى موسر يجمع المال ويكنزه أو يحـرزـه لا ليـجعل منه حظاً للفقراء والمساكين ، وإنما ليـجعل منه سبيلاً للتسلط عليهم والتشكيل بهم والتعالى عليهم وإذلالهم بغير حق .

لقد وصلنا إلى منزلنا بعد صلاة الفجر ، فلنستريح قليلاً ، فقد جاهدنا جهاداً متصلاً منذ صبيحة هذا اليوم إلى صبيحة اليوم التالى وقد أتممنا واجبنا وما أسعد المرء إذا آوى إلى مضجعه وهو يشعر أنه قد أدى واجبه فى اليوم الذى فات ، نـخـير أمنية للمرء فى حياته أن يعيش وقد عرف التزاماته فأداها ، وفرائضه فقام بها ، ونام وهو معتقد أن الله راض عنه ، وأن عباد الله ليس لهم عليه مـوجـدة

لقد كان وقتنا بمكة ضيقاً قبل الحج ، فقد وصلناها قبله

بعشرة أيام ، وكان علينا أن تؤدي مناسكنا ، وأن ندرس أصول هذه المناسك ، وأن تؤدي واجبات أخرى دينية وغير دينية ثم إن الوقت في ذاته كان موقوتا بمواعيد الصلاة من الفجر إلى العشاء . لذلك عجلنا بما لم يكن من دراسته بد ، واستمهلنا أنفسنا إلى أن نعود من منى بعد العيد لندرس ما بقي علينا من عادات الناس هناك ومعاملاتهم ، ولم يكن لدينا مع الأسف سوى جمعة واحدة نصليها بالحرم المقدس .

وقد شاهدنا الزحام بل الالتهام في أوقات الصلاة الأخرى فبادرنا بالذهاب إلى المسجد في الساعة العاشرة من صباح الجمعة ومع ذلك وجدنا اكتظاظا يحول دون مرورنا ، ولولا أننا كنا قد اتفقنا مع حارس مقام مالك في اليوم السابق على حجز أماكننا لما استطعنا الجلوس مطلقا خصوصا أن ما ليس له سقف من ساحة الحرم كان تحت تأثير أشعة شمس محرقة مع أننا كنا في الخامس من شهر فبراير فلم يكن من المستطاع أن نجلس تحت السماء ، وقد قضينا أعمارنا نجلس في المكاتب تحت السقوف ، فلم نعد نحتمل الشمس في اشتداد سطوعها ، لأن حرارتها أقوى مما تعودناه منذ الصغر ، ولانستطيع التمتع بنور النجوم في بهائها ، لأنها تسطع في الليل حين نكون منكبين على أوراقنا من جهة ، وحين يكون هذا الجو الصافي رطبا وصعبا علينا

احتماله ، وهذا هو ما جنته علينا حياة المكاتب . فلم يكن من المستطاع أن نجلس تحت السقف الدائر بالحرم ، لأنه مشغول بالسيدات وقد حسبنا حسابه واشترينا الأماكن من حارسها فحجزها وجلسنا مسرورين .

كان الوقت واسعا ، وكان الظهر بعيدا ، وفي مقام مالك ككل مقام آخر عدد لا حصر له من المصاحف الشريفة وقفها أهل الخير على الحجاج ، فجلسنا وفي يد كل منا مصحف يتلو منه آى الذكر الحكيم . فما أروع ذلك وما أعظمه .

ومع أن الزحام قد بلغ أشده فلا تزال الوفود ترى وقد جلس الناس على أبواب المسجد عندما عجزوا عن دخوله ، وحضر قبيل الظهر أستاذنا الكبير الهلباوى بك فى عبادة من حرير « روب » ولما لم يجد مكانا خاليا أخلينا له مكانا وجلس كل منا القرفصاء . وبعد قليل من حضوره أذن الظهر .

إن صوت المكيين فى الحديث رقيق جميل ، وصوت المؤذنين منهم أجمل . ولست أحكم على ذلك بصوت المؤذن وحده ، فقد كان المبلغون مثله فى صوته رقة وجمالا ، ولست أذكر أننى سمعت فى مصر مؤذنا أكثر عذوبة ولا أكثر تجويدا للأذان من مؤذن مكة .

فأنت اذ تسمع الأذان من المؤذن لا تشك أنه مدرك
ادراكا تاما انه واقف بين يدي الله .

الله أكبر الله أكبر يقولها بأسلوب يصل إلى قلبك ويجلي
لك أن الله أكبر حقا فلا هي عبارة محفوظة يقولها أو آذان
يرتله ، وإنما هو يعتقد ويشعر أن الله أكبر فيقول ذلك وأنت
تسمع ان الله أكبر كما تعتقد وتشعر ، فأذانه صادر من قلبه
مصوب إلى قلبك ، واصل إليه بلا واسطة ، أشهد أن لا اله إلا الله
وأشهد أن محمدا رسول الله . ان من يسمع هتاف الرجل وهو
يرتل هاتين الشهادتين يرى أنه يؤدي الشهادتين حقا ، بوجوده
وإيمانه ، وهكذا حتى أتم أذانه .

وصعد الإمام على المنبر — وكان قريبا منا — وقال السلام
عليكم ، فتذكرنا ما قرأناه عن عهد رسول الله وخلفاء رسول الله .
وتقدم المؤذن فأعاد الأذان بين يديه ، ثم ألقى الرجل خطبته
وأقيمت الصلاة ، وما كان الناس أحرارا يركعون ويسجدون
فالواقع أنه لم يكن هناك مكان يسع ركوعهم وسجودهم من شدة
الزحام ، فكانت تقع رأس أحد المصلين على ظهر الآخر .

سبعون ألفا من الناس غير أهل مكة والحجاز يصابون في هذا
المكان ، فالمساجد الأخرى بمكة تكاد لا تستعمل ، فالحجاج
طبعاً لا يعرفون سوى الحرم ، ولا يفكرون في الصلاة في غيره ،

لأن الصلاة فيه تعدل صلوات في مساجد أخرى ، ومن ذا الذي يرضى أن يضيع على نفسه الثواب بالصلاة في غير الحرم .

ولولا أن للإمام مكانته ، ولولا أن له عبيد يتهادى بيدهما حتى يصل إلى مكانه وهما يفسحان له الطريق لوجد غناء في الوصول إلى مكانه .

ولعلك توافقني على فائدة العبادة ولذة الخضوع وحكمة الاسلام إذا علمت أن هؤلاء الآلاف يتقابلون يوميا خمس مرات والصفاء يزداد بينهم ، والوئام يسود علاقاتهم فما حدث بينهم نفور ولا تزاحم ولا مشاحنة ، وهم جميعا مدفوعون بعامل واحد ، هو عامل التقرب إلى الله الواحد الديان .

مكة المكرمة

ما أظنني حين أتحدث عن مكة إلا متحدثا عن أحب المدن الى الله وإلى المسلمين من عباد الله .

وما أظن إلا أن اسمها يهز مشاعر الناس كما يهز شعوري ويأخذ بمجامع قلوبهم كما هو آخذ بنفسى وقلبي وروحي !

فمكة ليست بلداً بما تستطيع الجغرافيا والتاريخ أن تتحدثا عنه ، فما يتحدث التاريخ إلا عن نشأتها وما جرى عليها من الأحكام والحكام على طول الأيام ، وما تتحدث الجغرافيا إلا عن موقعها وتكوينها وطبيعتها ومكانها وما إلى ذلك ، ولكن مكة الروحية ، ومكة بلد الكعبة !! وتلك الحياة التي لا توجد في غير مكة ولا يمكن أن تشاهد في غير مكة !! ونفوس المكيين ، ووصف مكة وهي غاصة بالحجاج ؟ ومكة التي تسع عشرات الآلاف من الحجاج في كل عام ؟ هذه كلها إذا حاولت التحدث عنها عجزت كل العجز عن بلوغ هذه الغاية !

مكة موطن النبي العربي الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق
فأضاء العالم ، ونشر رسالته للمسلمين خاصة وللناس كافة .

مكة البلد الأمين حيث ولد رسول الله عليه السلام
وحيث نشأ وترعرع ، وحيث نزل عليه الوحي فكان هذا
الوحي قرآنا عربيا سمى آدابه عن كل آداب ، واحكامه عن
كل أحكام ، ودستوره فوق كل دستور ، وقوته فوق كل قوة
فكان في النفوس سحرا ، وفي الناس عدلا ، وفي القلوب هدى
وفي الصدور نورا ، وبقي مسيطرا على العالم منذ نزل وسيدبقى
هكذا الى الأزل ، فسار المسلمون على تعاليمه واقتبس غير
المسلمين هذه التعاليم فجعلوها أسسا لقوانينهم ، وميزانا لأحكامهم
وظل صالحا لكل جيل ، موافقا لكل أمة وسيدبقى — كما قلت —
صالحا لكل عصر ما بقيت الدنيا وما دام الزمان .

مكة بلد الرحمة ، هي أم القرى ، كان أول من هبطها نبي ،
وبعث منها آخر نبي ورسول .

وما أظنني حين أتحدث عن مكة سيطلب مني وصف
للشوارع والمنازل ، فانها لا تكاد تختلف عن طراز الشوارع
والمنازل في جدة ، وقد قات ان قيمة مكة ليست في دورها
وشوارعها ، فإذا لم يكن هناك بد من أن أذكر عنها شيئا فإني

لذا كر ذلك بعد قليل ، ولكنها على كل حال بين كبيرة يكاد يقرب عرضها من طولها الذى يبلغ نحو الميلىن، وشوارعها فى الغالب ضيقة خالية من النظام ، وذلك سببه ضعف الحالة المالية فى البلاد . لكنها مع ذلك بلدة مستقرة هادئة يستتب الامر فيها وتسير فيها احكام الشرع الشريف بكل ما فيها من دقة، ولذلك تجد بها العدل وتشعر فيها بطمأنينة وأمن لانظير لها فى أى بلد آخر .

نشأت مكة فى واد ليس به زرع ولا ماء، وليس به أيضا أحد من السكان . أنشأها سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام قبل الميلاد بتسعة عشر قرنا ، فهى بذلك من أقدم بلاد العالم عهدا ، لها من العمر أربعة آلاف عام إلا قليلا ، فقد أمر الله تعالى ابراهيم بالهجرة بولده اسماعيل وزوجه ، فهاجر وخط رحاله بها وأنشأ بيتا اقاما فيه، الى آخر ما مر بك فى الفصول السابقة، ونشأت أم القرى كعبة للقاصدين ، . وقد توالى عليها قبل الاسلام وبعده حكام متعددون ، فقد ولى عليها رسول الله عليه السلام فى العام الثامن من الهجرة عتاب بن أسيد رضى الله عنه الى أن انتقلت الخلافة الى الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين ثم الفاطميين ، وظلت بعد ذلك يتناوبها الحكام حتى تغلب عليها النمنون وصارت بين المصريين والنمنين يحكم فيها من

غلب ، ولما وقعت مصر في يد الاتراك تبعتها مكة فالحجاز . وهذا وغيره هو سبب تعدد الاصول بمكة ، فالمكيون خليط من العرب والمصريين واليمنيين والهنود والجاويين والاتراك ، وقد ترتب على هذا أن اختلطت الانساب والاخلاق والعادات وفي ذلك يقول المغفور له ابيد البتانوني قوله الحق ، لقد كان اختلاط هذه الاجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة والمعاشرة مدعاة لأن صار سواد أهل مكة خليطا في خلقهم وخليطا في خلقهم ؟ وهذا الذي قاله البتانوني بك منذ ثلاثين عاما تقريبا لا يزال ماثلا الى اليوم . فلا تزال لغتهم مشوهة بما دخل عليها من اختلاط المتكلمين ، ولا تزال أخلاقهم كما رواها ، ولهم عبارات يتحدثون بها غير مألوفة ، بل هي غير دالة في ذاتها على ما يقصدون اليه من معناها .

فإنك تراهم كما قال قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الأناضولى ، وعظمة التركي ، واستكانة الجاوى ، وكبرياء الفارسي ، واين المصرى وصلاية الشركسى ، وسكون الصينى ، وحدة المغربى ، وبساطة الهندوسى ، ومكر اليمنى ، ونشاط السورى ، وكسل الزنجى ، ولون الحبشى ، بل تراهم جمعوا رقة الحضارة وقشف البداوة ، فبينما ترى الرجل منهم قد آنسك برقة حديثه معك ، اذ هو قد استوحش منك وأغاظ في كلامه حتى لكان طبيعة البداوة قد غلبت فيه

تهذيب الحضارة فلم يطق ما تسكفه في حضرتك . وقد وصل الخلط الى ازيائهم فإنك تراها مجموعة مختلفة من ازياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية وقفطان مصرى وجبة شامية الخ .

وهذا الذى قاله البتانونى بك لا يزال منطبقا على الواقع بل إن ما دخل على البلاد من المدنية لم يغير كثيرا مما قال . ولست أدري متى تصبح مظاهر مكة مصقولة كما ينبغى .

ولعللى أكون بما سبق قد وضعت أمام القارىء وصفا قصيرا لمكة على غرار ما كتبه المرحوم محمد باشا صادق . وإنك لتستطيع أن تدرك مدى تقدم البلد اذا علمت ان هذا الوصف وضع منذ نيف وأربعين عاما ولا يزال منطبقا عليها إلا القليل مما استحدث بعد ذلك كقصر الملك ، ودور الوزراء ، ومبنى بنك مصر ، وفندقه الجديد ، ولعل بما جدها بعض مظاهر المدنية فى أثاثات المنازل والمقاهى ، فإنك لترى مقاعد أنيقة متوسطة فى كثير من الاماكن ، كما أن بعض الدور تضاء بالكهرباء بواسطة مولد خاص . واليك ما قاله صادق باشا فى رحلته :

« وأما مكة شرفها الله تعالى فهى بلدة كبيرة بين جبال صعبة المرور . . . وهواؤها جاف لزيادة حرارتها ، وهو طيب للصحة ، وبها من الجبال المشهورة جبل حراء ، وفيه الغار الذى

كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه حين أخرجه الكفار من مكة ، وهو يقع جنوبها بمسافة ساعتين ، وجبل النور شمالها ، وهو أول مهبط لجبريل عليه السلام ، وجبل أبى قبيس بشرقها ويوتها نحو ٦٥٠٠ وجميعها ذات خمس طبقات من الحجر الاصم ، وبها خلاف الحرم المكي ستة جوامع . والمساجد المشهورة بها هي : مسجد الراية ، والجن ، والإجابة ، والبيعة . وبها قلعتان وثلاث تكايا منها التكية المصرية ، وحمامان وتسعة خانات وست مدارس . . الخ

ومن فواكهها العنب والرمان والموز والبطيخ ، وهي تستورد البرتقال والتفاح .

هذا بمحل وصف مكة ، وهذا ما يخص حال أهلها وأسباب المعيشة فيها

ولقد أقننا فيها ثمانية عشر يوما كانت من أسعد أيام حياتنا وقضيناها على خير ما كان يجب أن تقضى .

حَيَاتُنَا بِمَكَّةَ

كنت أحسب أنى سأقضى أيامى بين العبادة ، لأنى لم أسافر إلى مكة للدرس والاستقرار ، بل لأؤدى فرضا واجبا تهيأت ظروف قضائه فكان سفرأ لله وفى سبيل الله . على أنى مع ذلك كنت أعددت أوراقا أدون فيها مذكراتى عما تقع عليه عيني أثناء أداء الفريضة نفسها ، فلم اعتزم أن أنتقل أى خطوة للدراسة فى ذاتها ، لكننى ما وصلت إلى السويس حتى اندفعت إلى البحث والكتابة بشكل لم أكن أعتقد أنه سيكون ، ولست أدرى ما حفزنى إلى ذلك كله ؟ أهو لأنى قضيت كل حياتى دارسا فلم أعد أستطيع أن أسلو الدراسة ، فلقد قضيت أيامى منذ السادسة من عمرى متنقلا من المكتب إلى المدرسة متدرجاً إلى المحاماة ثم إلى الكتابة والنيابة فلم أسترح يوماً واحدا من الدرس والتحصيل ، فأصبح عسيرا على أن أتعطل لحظة عن الكتابة أو القراءة أو كليهما معا ، ولست أستطيع أن أرى جديداً لا أدرسه ، أو حديثاً لا أقرؤه على الرغم من العمل المضنى الذى أزاوله ؟

أم كان الحافز إلى ذلك ان الفرصة التي أتاحت لي بزيارة تلك الأراضى قد لا تتاح مرة أخرى وهى أراض مقدسة تنبعث فى النفس رغبة قوية للتزود من آثارها، بل كل ما يحيط بها حتى التراب ؟

أم حفزنى شىء من رغبة المراء فى اكتساب رضا الناس واحترامهم وتقديرهم، وما عسى أن يكون من الحرج لشخص مثلى إذا سئل عن شىء فى الحجاز فلم يعرفه مع أنه قد يكون من اليسير إدراكه ؟

لست أدري حقيقة ما حملنى على حمل مفكرتى ثم السعى فى البحث والتنقيب وانتهاز الفرص إليهما، فقد يكون سببا من هذه الأسباب، وقد تكون هذه الأسباب جميعا. وقد يكون مع هذه الأسباب ما لقيناه فى تلك البلاد من أهلنا ومن أهلها. لذلك قسمنا أوقاتنا وكان للدرس والاستكشاف قسط كبير من هذه الأوقات .

والحياة فى مكة حياة طلية، لأن مكة بلد عامر بالرجال والأشياء عامر بالجماعات والأفراد، عامر بالعلماء والمتعلمين، عامر بالنظام والمنتظمين، به نظام حكم جميل، وبه قضاء عادل، وبه صحافة وجمعيات للإسعاف والطيران وغيرهما، وبه متاجر وفنادق. وبه ما تحتاج اليه وما تألفه فى أكثر البلاد نظاما .

نعم إن كل الذى بها يعوزه المال، ولكنه مناسب لـ حاجة البلاد ولـ مآلها وهو كذلك جميل فى بساطته ، فلن تجد فيها صحيفة كالأهرام أو غيرها من الصحف اليومية المصرية ، ولكنك تجد فيها صحيفة تفى بحاجة البلاد ودرجة اتساعها وثقافتها .

جريدة أم القرى - لقد اطلعت على جريدة أم القرى - وهى الصحيفة الرسمية لحكومة الحجاز - فوجدت فى إحدى صحفها اسمى منشورا بين الحجاج الذين وصلوا إلى مكة ، وأنا رجل أقدر الصحافة أعظم تقدير ، وأحب رجالها ، فاعتبرت نشر اسمى تحية لى وأردت أن أرد على هذه التحية ، فاستصحبته أحد أصدقائى إلى دارها التى تقع خلف دار الحكومة والتكية المصرية بقرب الحرم فوجدتها دارا كبيرة ، ووجدت بطاقتها الأرضى مطبعة يشتغل فيها عدد كبير من العمال ، وسألت عن رئيس التحرير فاستصحبنا أحد رجال المطبعة إلى الدور الثانى وأرشدنا إلى غرفته ، وهناك لقينا د الاستاذ فؤاد شاكر ، وقد قيل لى إنه صحفى مصرى كان يحرر فى « البلاغ » ، على ما أذكر أو فى إحدى الصحف التى أصدرها صاحب البلاغ قبله . لم أتحقق هذا الخبر ، ولكن الرجل على كل حال قابلنا واحتفى بنا حفاوة بالغة ، وقدم لنا القهوة الحجازية ، وحادثنا طويلا عن الصحافة وعن مقدار ما تسديه للناس من الخدمات .

لم أكن قد سمعت قبل هذه الزيارة أنه كان صحفيا مصرية فلم أفاتحه في هذا الشأن .

وليست أم القرى كبيرة الحجم ، وهي تصدر أسبوعية حاوية لأخبار الحكومة كلها ، شاملة أيضا لأخبار البلاد ، فهي تقوم في الوقت بمهمة الوقائع الرسمية والصحف المحلية في القطار المصري وتلشر فيها مقالات أخلاقية ودينية بأسلوب قوى ، ومع صغر حجمها فإن معدات طبعتها موفورة . وتوجد بالحجاز صحيفة أخرى اسمها « المدينة المنورة » ، وتصدر بها .

فالصحافة هناك ممثلة أحسن تمثيل بقدر حاجة البلاد ومواردها . وعلى ذكر القهوة الحجازية لا بأس أن أذكر أنها قهوة تختلف عن قهوتنا ، فهي خلاصة ماء مغلى بالبن غير المصحون مع بعض أشياء أخرى تقدم في فناجان ولا تزيد على بعض نقط في هذا الفناجان ، ولكنها لذيدة الطعم والنكهة والرائحة . وكانت زيارتي « لأم القرى » ، أول زيارة لى في مكة أتبعها مباشرة بزيارة « التكية المصرية » .

ولقد شعرت عند ما دخلتها أننى فى مصر ، بل اننى فى دارى بين أهلى ، فقد وجدت كل شىء مصرية ، فالدار مصرية أنيقة بالنسبة للبانى فى مكة ، ولها مداخل كمدخل الدور المصرية القديمة ، وإذا دخلت إلى حجرة ناظرها « وكان الدكتور مصطفى عبد الخاق

وجدته جالسا بملابسه العربية على مكتب مصرى وفى غرفة مفروشة بالسجاد ، ولقينا الرجل باشا ضاحكا فرحا بأهل وطنه يحجون إلى داره ويأنسون إليه ، وقد كان يساعد المصريين كما لو كان سفيرهم هناك ، فكان خير عون لمبعوثنا السياسى والقنصلى هناك « الياس بك اسماعيل ، فكم دأبا على خدمة المصريين ومساعدتهم ، وبذلا كل مجهود فى سبيلهم .

ولقيت هناك « الياس بك ، وهو رجل دمث الأخلاق واسع الصدر ، طلق المحيا ، غزير الأدب ، يسمع شكوى الكثيرين ويساعد الجميع على السواء .

وقد قدمت لنا القهوة المصرية هناك فسررنا بها أى سرور . وجعلنا من كل يوم من أيامنا وقتا نقضيه فى دارنا هذه ، وكنا كلما زرناها زادت محبة أهلها لنا ، وزاد تعلقنا بها وبهم ، وكنا نقضى ذلك الوقت بين الياس بك والدكتور عبيد الخالق والدكتور نجيب بك قناوى والدكتور عبد العزيز بك الغمرى رئيس البعثة الطبية هناك .

وقد وضع لى جليا أن البعثة الطبية تقوم بالمعونة الحقة والعلاج المستمر والملاحظة التامة لكل من وفد عليها من الزائرين من مختلف البلاد والاجناس .

وكان عبد العزيز بك يتردد على المرضى فى منازلهم

ومساكنهم متى علم بهم ، وكانوا غير قادرين على زيارته بدار
البعثة ، وليس من شك في أن عواطف هؤلاء الناس عواطف
سامية ، وهي تسمو حقاً كلما كانوا غرباء بين الغرباء ، فإنك لتجدهم
إخوة ورسلاً سلام ووثام ورحمة .

حدثت لي واقعة دلتني على ما في المصريين من كرم .
فقد اتصلت ببنك مصر من مسرة « تليفون » التكية أسأل عما
إذا كان تحويل نقودي من المنصورة إلى بنك مكة قد وصل
فأجابني البنك بأن التحويل لم يصل إليه ، وأنه ربما يكون في
جدة ، وأنهم سيتصلون بجدة لهذا الغرض ، وكان هذا الحديث
على مسمع من نجيب بك قناوى والدكتور مصطفى عبد الخالق .
وقد ظننا من سألنى أن نقودى قد نفدت ، فأمسك
الدكتور عبد الخالق بالتليفون ليطلب إلى البنك أن يصرف
لى ما أشاء من حسابه أو بضمانته ، وأخرج الدكتور نجيب بك
دفتر شيكاته ليحرر لى إذنا بنقود .

وعبثاً حاولت إقناعهما بأن لى نقوداً كثيرة ، وأننى رأيت
السؤال من باب العلم فقط ، وأننى فضلاً عن ذلك معى والدى
ولديه نقوده التى تزيد على حاجتنا حتى نشترى هدايانا ونعود
إلى مصر ، ولولا اننى أقسمت لهما وأخرجت لهما حافظتى فاطمناً
لما أعفيا لى من هذا التفضل .

ولكى تقدر قيمة هذا الجميل وعظمته أقرر لك أنهما
لا يعرفانى قبل الحج ولم يسبق لنا التلاقى قبل لقائنا بمكة، وكان هذا
مما ضاعف قيمة الفضل وجعل له بهاء فوق كل بهاء .

لقد سبق أن ذكرت أن التكية المصرية مقابلة للحرم
الشريف ، ولذلك يمكنك أن تصلى فيها خلف إمام الحرم
فى أوقات الصلاة عندما يكون المكان فى الحرم مزدحما .

وهذه التكية تنفق رواتب منظمة للفقراء وبها عيادة لعلاج
المرضى مجانا ، وتقوم بهذه المهمة طوال العام إلى جانب أعمال
البعثة الطبية أيام الحج .

وتقع التكية المصرية إلى جانب دار الحكومة الحجازية
بمكة ، وقد زرتها فى اليوم التالى وعرفت نظامها الإدارى، ومن
بين من زرته فيها رئيس الشرطة ووكيله .

وقد زرت المحكمة واطلعت على بعض قضاياها وعرفت
نظام قضائها ، وهو نظام محكم .

في بيت الملك

عدت من التكية المصرية إلى دارى وأنا معتزم زيارة دار الحكومة السعودية في الغد لأرى ما وصلت إليه الأنظمة في تلك البلاد، فوجدت دعوة لتناول العشاء في اليوم التالى على مائدة صاحب الجلالة ملك الحجاز، فرأيت تأجيل زيارة دار الحكومة إلى ما بعد ذلك اليوم عمى أن يباح لى فى تلك الحفلة التعرف إلى بعض رجال الحكومة فيسهل ذلك على الوصول إلى الغرض من زيارتى، لأنى وإن كنت قد دعيت إلى زيارة الدار من أحد موظفيها إلا أنها لم تكن دعوة لزيارة جميع فروع الحكومة.

كانت الدعوة الملكية مطبوعة على ورقة بيضاء جميلة ومحدد فيها وقت العشاء بعد صلاة المغرب فى اليوم المبين بها، وجاءت السيارات تلتظر المدعوين أمام باب الحرم ودار الحكومة، فركبت السيارة مع ثلاثة من رفاقي^(١) وسارت بنا حتى وصلنا إلى القصر الملكى وهو قصر مؤلف من طابقين، وأمامه سور يفصل بينه وبين الطريق. وقد وجدنا بعض رجال الحكومة عند الباب الخارجى

(١) م عبد العزيز الفخرى بك رئيس البعثة الطبية . وزكى بك حسين القاضى والأستاذ محمد مصطفى الموظف بديانة مصر .

يستقبلون المدعويين ، وكانوا يرحبون بهم والبشر والسرور
ظاهران على وجوههم . وإذ بلغنا الباب الداخلى صعدنا السلم
المفروش بالأبسطة الحمراء حتى وصلنا إلى الطابق الثانى ، وكان
كل منا يظهر تذكرته بيده ، وقد لاحظنا أن المدعويين يوزعون
على ثلاث حجرات فى القصر ، ودخلت مع صديقى زكى بك
حسين إلى أول حجرة على يسار الداخل فى القصر بناء
على ارشاد رجال التشريفات ، أما الغمري بك فقد دخل
إلى غرفة أخرى ، ولاحظنا أن تذكرته حمراء فسألنا عن القاعدة
التي اتخذت فى توزيع المدعويين ، فقبل لنا إن المدعويين يجلسون
فى ثلاث غرف ، الأولى حجرة جلالة الملك ، والثانية لنائب
الملك فى الحجاز ، والثالثة لسمو ولى العهد ، ولم تكن الحجرة
التي نحن فيها حجرة الملك .

ولست أخفى أن هذا التوزيع آلم عواطفنا ، وكان زكى
بك أشد منى ألما ، وتشاورنا فيما نعمل ، ففكر فى أن ننصرف
قبل العشاء ، فقلت له إننى معك ، فهيا بنا على شرط أن نفكر فيما
سنعتمر به إذا اعترضنا معترض ، وكان العذر حاضرا ، إذ أننى
سبق أن قدمت أن يد زكى بك قد جرحتم يوم وصوله إلى جدة
ولا يزال تحت العلاج ويده مربوطة ، فإن سألنا سائل تعلمنا
بأنه فى حاجة إلى الراحة وتنظيف الجرح ، وهى حيلة قد تجوز

ولا تنكشف . وفعلا جازت على كثيرين، حتى اذا وصلنا الى الدور الاول عند الباب الداخلى وقابلنا رجل من رجال التشریفات وسألنا عن وجهتنا أفهمناه أننا منصرفان وذكرنا له العذر الذى اتفقنا عليه كما ذكرناه لمن سبقه فى الاستعلام ، ولكن الحيلة لم تجز عليه !

قال لدينا فى القصر مكان الإسعاف، فاعتذرنا، فأبى، فصممنا ولكنه صمم أيضا، وأخيرا قلت له إن لدينا سببا يحسم علينا الانصراف ويمنعنا الواجب عن ذكره فسمح لنا بالذهاب ، قال إن التقاليد لا تسمح بهذا فى القصور، فإن كان السبب شخصا فاصبرا عليه ، وإن كان السبب قد حدث هنا فاذكراه وأنا كفيل بإصلاح الأمر ، ولم نتزحزح عن موقفنا ، وكاد يكون الموقف حرجا ، وساد صمت قليل قطعه علينا محدثنا بقوله : إني مصرى أصلا ، وتقضى علينا أخلاقنا أن نكون أمناء لرؤسائنا فى أى بلد كنا، وهذه الأمانة تمنعنى من السماح لكما بالانصراف، ولكنى فى الوقت نفسه مكلف بالعمل على راحة الزائرين، قلنا : أمصرى أنت حقا ، قال نعم !. قلنا وهل يكون لنا شرف التعرف بك ؟ قال أنا عبد السلام غالى من علماء الأزهر الشريف ومن مديرية البحيرة ، ولى أخ فى مصر من رجال القلم، وعائلتى موجودة هناك وأنا أتردد عليها بين حين وآخر !

أأنت مصرى حقاً ؟

لقد كان سرورنا عظيماً بهذه المصادفة الجميلة، فالرجل نشيط
جسم الأدب، جميل الخلق، هادئ الطبع، مخلص في عمله، يشغل
مركزاً ممتازاً في مكة وهو حركة دائمة ولقد فهمنا من معاملة رجال
القصر له أنه ذو مركز عظيم بينهم، لأنه محل احترام وتقدير.
قال له ما دام عذرنا لم يجز عليك فلنذكر لك الحقيقة، فقد
شعرنا أننا وضعنا في مركز لا نوضع في مثله ببلادنا !!

قال ان رجال القضاء هنا محترمون كما يحترمون في مصر
تماماً، وليس توزيع الأمان في هذا الاحتفال مبني على أقدار
الرجال والتفريق بينهم وتمييز فريق منهم على آخر، إنما لونت
التذاكر لحصر الذين يدخلون إلى كل غرفة، لأن المدعوين
كثيرون ولا تسعهم غرفة واحدة، ولم يكن هناك بد من توزيعهم
على الغرف، حتى إذا ما شرف جلالة الملك غرفته ذهب الجميع
من مختلف الحجرات لمقابلة جلالاته، ثم يذهبون جميعاً إلى غرفة
المائدة حيث يجلسون في حضرته دون تمييز وحيث يجلس كل
منهم في المكان الذي يختاره، والذين جلسوا في غرفة النائب
أو ولي العهد أسعد حظاً، لأنهم سيتمتعون بمجالسة الأمرام
في حجراتهم، ثم يذهبون جميعاً إلى مكان جلالة الملك عندما
يشرف فيتمتعون مرتين .

ثم استدرك فقال : على أنى إرضاء لكما ودرما لما عسى أن
يعلق بذهنكما من أثر هذا التوزيع سأذهب بكما الى غرفة جلالة
الملك مباشرة ، وسار أمامنا الى هناك .

لم يكن الملك جالسا عند دخولنا فجلسنا مع الجالسين في
الانتظار، وبعد قليل أحسنا بحركة ودخل بعض رجال البوليس
من باب الغرفة ثم تبعهم بعض رجال القصر يفسحون الطريق
وفي أثرهم دخل جلالاته وتوجه إلى صدر الغرفة حيث جلس
في جانب من ذلك الصدر الى يسار الياس بك اسماعيل ، والى يمينه
وزير يمينى على ما علمت، ثم أشير الزائرين بالجلوس فجلسوا وأخذ
رجل من رجال التشرىفات يناديهم واحدا بعد الآخر فيقدمهم
الى الملك وهو يستقبلهم واقفاً ويصافحهم جميعاً ثم استدعى
من فى الحجرتين الآخرين فدخلوا وسلموا .

وتقدم بعض الخطباء ومن بينهم مصرى معروف فخطبوا
بين يدي جلالاته، ثم بدأ يلقي درسا على الحاضرين مقتبسا من
القرآن وتفسيره والدين وأحكامه، ودعا الى الاتحاد والوفاق
بين العرب . ثم نهض جلالة الملك الى غرفة المائدة حيث جلس
بين وزير اليمن وقنصل مصر والمدعوون الى جرارهم على مائدة
مديدة فى غرفة طويلة اتسعت للمدعوين جميعا .

ونظام المائدة هناك أن توضع جميع أصناف الطعام على

المائدة قبل دخول الضيوف ، وهم يتناولون صنفاً بعد الآخر بالترتيب الذى يتناول به الملك طعامه بأن يؤخذ الطعام من كبار الاوانى حيث يضعون أمام كل ضيف طعامه فى طبقه ثم يرفعون الاطباق كلما تغير الصنف .

كان أمام كل أربعة أو ستة ضيوف آنية كبيرة من النحاس « طشت » ملىء بالارز المخلوط ، وعلى قته حمل من الضأن وفى الاطباق الاخرى دجاج وسمك وأنواع الخضروالفواكه والحلوى والفتائر والفواكه ، وكانت الاخيرة هى التفاح والبرتقال والموز كان الطعام كثيراً جداً إلى حد أن أكل الحاضرون وشبعوا ومع ذلك بقيت الصحاف وهى تكاد تكون ملىء ، وكان ما فيها يكفى لثلاثة أمثال المدعوين على الاقل .

ولما انتهينا من الطعام قام جلالة الملك وتبعه الباقيون الى حيث كانت الطشوت والأباريق النحاسية والفضية موضوعة فى ردهة على كراسى ، والخدم واقفون يصبون الماء على ايدى المدعوين .

ثم عدنا إلى صالة الجلوس وجعل جلالة الملك يلقي درساً آخر ، وعندئذ قدمت القهوة العربية ، وكان يقدمها رجال يلبسون حلالاً حمراء مزر كشة جميلة الصورة ، متقنة الصنع مكونة من قطعتين .

ومن قواعدهم فى تقديم القهوة أن يضعوا فى الفنجان مقداراً

صغيراً ، ذلك أن القهوة عندهم تقدم مركزة فلا يستطيع أحد أن يشرب منها فنجانا كاملاً وإلا خدرته ، ولكنه إذا شرب كل ما قدم إليه كان هذا دليلاً على رغبته في المزيد فتقدم إليه كمية أخرى دون أن يطلبها .

وبعد قليل قدمت القهوة مرة ثانية ثم دخل الخدم مرة ثالثة يحملون أواني مملأة بالعطور فقدموا منها لكل الحاضرين وفهمنا أن دخر لهم هذه المرات الثلاث وبهذا الترتيب الخاص انما بنى على أمر جلالته بمقتضى اشارات اعتادوا عليها يصدرها لهم جلالته .

ثم وقف جلالته إيذاناً بانتهاء الحفلة ، فتقدم الحاضرون للسلام عليه وانصرفنا حيث اعادتنا السيارات الى حيث كنا . وكانت هذه هي حفلة استقبال الحجاج في أرض الحجاز أعقبها دعوة أخرى من جلالته بعد العيد ، وكانت الآخرة حفلة الوداع في أرض الحجاز ، والحفلتان متشابهتان في نظامهما كله عدا الأخيرة ، فقد كانت الدعوة إليها للحضور قبل المغرب بينما كانت الأولى بعده ، وكان عدد المدعوين في المرة الأخيرة أقل من عددهم في الأولى وكانت هناك بعض تغييرات في أصناف الطعام . وكان أهم ما لفت الأنظار في الحفلين السابقين الديمقراطية العربية الصحيحة ، والكرم العربي المطبوع ، والأدب العربي

المؤسس على الغريزة ، وتمسك ملك العرب بدين سيد العرب .
وقد رأيت جلالة الملك - وهو يشرب من ماء خاص -
يتحدث عن الماء الذى يشربه ، وكيفية استحضاره من عين
بعيدة عن مكة ، ورأى اكراما لجاره ان يقدم له آنيته الخاصة
ليشرب منها هذا الماء .

وكان من أجمل الآثار التى بقيت فى نفسى الى الآن كفاءة
المصرى أين حل ، وفى أى عمل يتولاه ، وأجمل من هذا أمانته
وإخلاصه لمن يوليه أموره ويأتمنه على أعماله ، وقد نالت كفاية
الاستاذ عبد السلام على وادب عبد السلام غالى ، وإخلاصه
كل اعجابى .

فِي دَارِ الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ

تقع دار حكومة مكة أمام الحرم ، بجوار التكية المصرية ،
وهي بناء متوسط الحجم ، به عدة غرف مقسمة بين عمل
الداخلية وعمل القضاء . ولوزارة المالية بناء آخر مستقل ،
كما أن لأمانة العاصمة والإسعاف دوراً أخرى .

زرت الحكمدار ، وهو يجلس في أول غرفة على يسار
الداخل ، فرأيت رجلاً محنكاً مؤدباً ، أحسن استقبالنا وقدم
لنا القهوة الحجازية وجلسنا معه قليلاً فلم يعرض عليه أثناء
ذلك شيء من الأعمال ، ثم انتقلنا إلى وكيله ، جميل بك ، في غرفة
أخرى فوجدناه شاباً طلق المحيا مشغولاً بشئ الأعمال .

وشاهدت في أحد أركان غرفته عدداً من الأمتعة والناس
يدخلون إليه واحداً بعد الآخر يقدمون له أن أشياء فقدت
منهم في الطريق بين جدة ومكة ، فيسلم كلا حاجته بعد ذكر
أوصافها ، ورأيت شيخاً جليلاً يعرض أنه فقد حرامه ،
وهو حرام مما يلبسه العلماء في مصر ويساوى من الثمن عشرين
جنيهاً مصرياً ، وسرعان ما أمره جميل بك ، بإحضار هذا الحرام

وعرضه على الرجل فاستعرف عليه . فطلب اليه أن يقدم شهوده وقال له في أدب « اننى لا أشك في صدقك ولكنه شيء عظيم القيمة ، ولا أستطيع أن أسئله دون تحقيق » فانصرف الرجل شاكرا هذا التقصى وعاد بعد ذلك ومعه شهوده فسأله اليه . وأقدم رجل يطلب عبادة فتدنت منه في الطريق فعرض عليه عبادة تماثلها ، وتأمل الرجل العبادة المعروضة عليه وتردد فقال له جميل بك : « تأمل جيدا فإنها ان لم تكن لك نهى إفيرك ولا بد أنه سيحضر للسؤال عنها » وأخيرا قرر الرجل أنها ليست له . ولم تكن هناك عبادة أخرى غيرها في الغرفة ، فطلب منه أن يذكر مكان فقدتها وأن يذكر أوصافها بدقة ، وأن يعود اليه بعد غد ، فقد حدثته جـدة تليفونيا وأخبرته أن لديها أشياء مفقودة سترسلها اليه وأعل العبادة من بينها .

سألنا جميل بك كيف تصلحكم هذه الأشياء ، قال إن من يعثر على شيء يقدمه إلى أقرب نقطة بوليس ، وهى من جانبها ترسله اليها ، والناس يعلمون ذلك فيحضرون للبحث عن حاجاتهم .

قلت له : ألا يضيع شيء أبدا ؟ وهل كل ما فقد يعود إلى أصحابه ؟ قال نعم .

قلت له ضاحكا : لقد فقدتنى فى ميناء جدة زجاجتان من شراب البرتقال أحضرتهم معى من مصر فى حوز خاص

ولكن هاتين الزجاجةين لم تعودا إلى مع لزومهما لضيوفنا في مكة .

قال لا بد أنهما في جدة ، وفي أثناء الحديث وعلى غير علم منا أمسك بمسرتيه وطلب جدة وظننا أنه يطلبها لعمل آخر ووضع السماعة في انتظار خلو الطريق ثم قال : سأسأل الآن في جدة عن هاتين الزجاجةين .

قلت : وهل طلبت جدة لهذا الغرض فقط ؟ قال نعم . قلت له إن أجر المـ كلمة يساوي ثمن زجاجة ، وليس للزجاجةين في نظرنا أى اعتبار يكفى لبذل هذا الجهد ، ورجونا أن يعدل عن هذا السؤال ، ولكنه تمسك برأيه الى أن أقنعته اننى سأسأل عنهما بجده عند سفرى إلى المـ دينة فاقنع وعدل عن الكلام ، واكسنى طبعاً لم أسأل عن الزجاجةين إلى الآن .

قال إنه أحياناً تضيع بعض أشياء يسكت من يجدها عن التبليغ عن وجودها ، ويسكت فاقدها عن التبليغ عن فقدها ولكن هذه الأشياء قليلة ، وغالبا تكون صغيرة القيمة ، فنذ أن جرى حكم الشرع في الحجاز ووجد اللصوص ان أيدي السارق تقطع عدلوا عن السرقة ، إذ ليس في الوجود شيء يعدل اليد التي يفقدها صاحبها ، فضلا عما يترتب على فقدها من الفضيحة والعار ، والعمل في هذا القسم دقيق وسريع جدا .

كان طبعياً بعد ذلك أن أنقل إلى القسم المخصص للمحكمة
فدخلت إلى غرفة بها عدة مكاتب يتوسطها مكتب القاضى وإلى
جواره فى الجانب الآخر مكاتب الموظفين ، وأمام مكتب
حضرة القاضى مقاعد مخصصة لجلوس المتقاضين ، وعلى مكتبه
آلة التليفون ، وهكذا تجد الغرفة معدة لجلوس الموظفين جميعاً
كما هى معدة لجلوس المتقاضين أيام الجلسات .

ولم يكن اليوم يوم جلسة ، ولهذا لم نجد حضرة القاضى
هناك .

وقد استقبلنا رئيس الكتاب وأخبرنا ان الجلسات تعطل
فى أيام الحج خصوصاً فى الأيام المحصورة بين قبيل العيد وبعده ،
لأن المكين مشغولون بأعمالهم وأرزاقهم ومعاونة الحجاج ،
وهم كذلك مشغولون عن التقاضى بمتاجرهم وأعمالهم ، وهذا
طبعاً لا يمنع من المحاكمات المستعجلة التى لا يمكن تأجيلها .

وقد أطلعنى على بعض القضايا فوجدتها تحقق طبقاً للنظام
المعروف هنا ، فيسأل الشاكي وشهوده ويسأل المتهم ويناقشون
جميعاً بقدر ما تسمح به الحال ، وشاهدت فى قضايا العرب
كشوفاً طبية مكتوبة بالآلة الكاتبة توصف فيها الإصابات
وصفاً دقيقاً ، وتقدم هذه القضايا بمعرفة السلطة المختصة ويسمع
القاضى القضية من جديد ويحققها بنفسه ثم يقضى فيها بعد ذلك .

والقضايا هناك لا تحفظ بمعرفة سلطة التحقيق، وإنما يحفظها القاضي بعد تقديمها إليه، ولعل الحفظ هناك أوسع من البراءة هنا، فالمفروض في البراءة أنها تقرر أن المتهم لم يرتكب الفعل أو لم يثبت عليه ارتكابه، أو ارتكبه وهو غير معاقب عليه، أما الحفظ هناك فيشمل هذه البراءة وأنواع الحفظ المعروفة لنا في مصر.

وبحكم القاضي الواحد في القضايا العادية، وهذا الوضع يختلف بالنسبة للقضايا التي تشتد فيها العقوبة، فالقضايا التي يحكم فيها بالإعدام أو بقطع اليد ينظرها مجلس قضائي خاص زيادة في التحرز والاحتياط.

وتسير الأحكام هناك على قواعد الشريعة الإسلامية حرفاً بحرف طبقاً للقانون السماوي الذي فصلت قواعده في القرآن الكريم.

وهناك شاهدنا أشخاصاً قطعت أيديهم اليسرى وهم يسرون في الطرقات يتكففون الناس.

ولست في حاجة إلى أن أقرر أن هذا القانون يسرى على كل من يوجد في الحجاز، لا فرق بين وطني وأجنبي، ولم يحدث أن تقزز الناس منه على كثرة الأجانب هناك في أيام الحج. بل إن هذا القانون موضع إعجاب العالم كله.

ليس هناك من ينظر الى هذا التناون على أنه غير مطابق لروح العصر ، بل إنه معتبر رحمة كبرى ونعمة عظيمة ، واليه وحده يرجع الفضل في استتباب الأمن في الحجاز ، وفي حرية الإقامة والاطمئنان على الأنفس والأموال .

من ذا الذي يرضى أن يفقد يده لسرقة شيء من أعراض الدنيا مهما غلا ؟ فما بالك إذا كانت السرقات عادة تقع على أشياء نافهة كما نرى في بلادنا وغيرها من البلاد المتمدينة ، بل من ذا الذي يسهل عليه أن يفقد يده لقاء رغيف أو قرش أو عود من القصب أو بعض الثمار أو ما شابه ذلك ؟ ومن ذا الذي اذا سهل عليه فقد يده يقبل على هذا العمل الذي لا منر لقاءه من قطع يده فضلا عن الفضيحة المستمرة الملازمة له في الإعلان عن جريمته في كل مكان .

لذلك تكاد السرقات تكون منعدمة هناك . ولهذا تجد عند وكيل الحكم دار كل شيء فقده صاحبه غلا أو رخص . ولا محل للظن بأن العبادة التي تغمر أرواح الناس هناك هي الدافع لهم على عدم السرقة ، فقديمًا كان يسافر بعض الناس متظاهرين بالحج والرغبة فيه ، وما كانوا يقصدون غير السرقة والنهب ، بل أنك لتجد في مصر كثيرًا من الناس يذهبون إلى المساجد بحجة أداء الصلاة ثم يتهزون استغراق المصلين في الصلاة

فيسرقون حذاء رخيص القيمة يهربون به . فليس الوقوف بين يدي الله في العبادة وحده رادعا للناس ، فالنفس الخبيثة لا يردعها الا الخوف من العقاب السريع الزاجر ، أما مخالفة الناس لله جل وعلا فكثير منهم يستهينون بها .

الواقع أن تنفيذ القانون السماوي هو الذي أمن الناس على أموالهم وأرواحهم ، فأكثر السفاكين في أرض الحجاز كانوا يقتلون من أجل الحصول على أموال الحجاج ، فهذه السرقة لم تعد هيئة كما كان الحال في الماضي ، فإن من ينجح في السرقة لا يجد من يعاونه على إخفاء مسروقاته ، ومن يقتل يُقتل حتما فيصدر عليه حكم الإعدام ، ويحدد يوم لتنفيذه . والتنفيذ يكون في الطريق العام .

حدث أن اثنين ارتكبا جريمة القتل ، فقتلا علنا في الطريق العام أمام الحرم الشريف والتكية المصرية .

وكان أحد هذين القتاتلين قد تغيظ يوما فحمل سكيناً وقتل أحد زملائه من الجاويين ، ثم زادت ثورته فضرب في طريقه كل من قابله أو حاول أن يتعرض له .

فلما كان يوم التنفيذ أعلان الأمر للناس ولم أتمكن من مشاهدة هذا المنظر ، لأنني كنت مشغولا بأمر آخر ، فضلا عن أني لا أستريح لمثل هذه المناظر ، لكن الذين شاهدوه وصفوه لي

فقالوا أحضر الرجلان وأجلسا متباعدين، وظهر كل منهما للآخر وقد أوثقت أيديهما وجلس سياف خلف كل منهما، فلما أعطيت الإشارة للسياف هوى بسيفه على رقبة المحكوم عليه وضربه ضربة واحدة عزلت رأسه عن جسمه ومات بعد قليل .

وهذه العلانية في الأحكام ، والشدة والدقة في إصدارها وتنفيذها هي صاحبة الفضل الأول في استتباب النظام والأمن في ربوع هذه الأراضى المقدسة .

عرفات والمزدلفة ومنى

اقرب اليوم الثامن من ذى الحجة، وهو يوم مغادرة الحجيج مكة إلى عرفات لأداء مناسك الحج ، اليوم الذى ينتهى بعد الليلة التالية له الامتحان !

ربنا وفقنا لما تحب وترضى . ربنا أتمم علينا نعمتك الخالدة ، ومنتك الباقية ، وأسبغ علينا من فضلك ما أسبغت علينا منذ هامت نفوسنا بهذه الفريضة .

ها نحن على استعداد للسفر ، وقد سبقنا مطوفنا فأعد لنا مأوى نأوى إليه الليلة التاسعة من الشهر ، وقد اتفقنا أن تكون خيامنا الثلاث متجاورة ليستمر بيننا الجوار والعرفان والوئام ، وليكون هذا تمهيدا لبقاء الروابط بيننا مدى الحياة .

نعم نحن على استعداد للسفر ، ولست أدري لماذا نشغف بكل حركة يسئلمها أداء هذه الفريضة : شغفنا بالذهاب إلى الحرم ، وكنا مدفوعين برغبة لا قبل لنا بدفعها ، وشغفنا بالتحرك للسعى بين الصفا والمروة ، وإذا أتيح لنا دخول الكعبة صعدنا السلم مهرولين حتى لتكاد تزل بنا أقدامنا .

لقد اتفقنا مع مطوفنا على أن يحضر لنا سيارتنا عقب صلاة

الظهر ، وأعددنا متاعنا لهذا الغرض ، لكننا فرغنا من الصلاة ولم تحضر السيارة ، فصلينا العصر وإذا بها تحضر . ولما أخذنا نعتب على مطوفنا اعتذر بالنزاحم على السيارات لذهاب الحجاج جميعا اليوم إلى عرفات ثم قال : وقد استطعت بجهد جهيد أن أختطف لكم هذه السيارة ، فركبناها وسرنا من الشبيكة مقررنا ، إلى خارج مكة بالقشاشية . وشاهدنا في طريقنا بيتنا عني عليه الزمن . لم ينل منه البلا . وإنما نال منه الحريق . عليه آثار النعمة التي أفناها الزمان ظاهرة ، ذلك هو قصر شريف مكة في الأيام الخوالي .

اللهم مالك الملك تؤت الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير .

اللهم لك في كل مكان آية تدل على أنك الخالق الحاكم المطلق لا تعقيب لأحد على حكمك ، ولا مرد لقضائك .

اللهم لك في كل مكان مظهر يدل على أنك الواحد القادر ، المعز المذل الباقي .

ها نحن الآن قد وصلنا إلى قصر ابن السعود . وخطر لي أن أذكر كيف دارت الأيام فأنهى عهد وبدأ عهد ، واندثر قصر وازدهر قصر ، ثم تذكرت قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وأن القصور كذلك تجري عليها الأحكام ، والناس على اختلاف طبقاتهم لا يذكرون الله إلا إذا ألت بهم ملة أو أصابتهم محنة .

لقد ذكرني هذا المنظر بكثير من أمثاله في مختلف الأقطار
وذكرني بحادث حريق وقع في عابدين من قرابة ثلاثين عاما قال
فيه المرحوم حفني بك ناصف قصيدته المشهورة التي مطلعها :
« قصر عليه تحية وسلام ،

وذكرت إذ ذاك الفرق بين حكم الحجاز اليوم وحكمه
في العهد الماضي ، والأمن الحالي والأمن السابق ، وعسف الحكم
في الأيام الخوالي وعدلهم في العهد الحاضر ، وادركت أن انهيار
ذياك السلطان واندثار ذلك القصر إنما كان جزاء وفاقا ، وأن الله
جلت قدرته قد أخذ حق عباده المظلومين من عباده الظالمين ،
وقيض رجال الحكم الحاضر لينشروا الأمن في أرضه المقدسة ،
ويشيعوا الطمأنينة في نفوس الذين تهوى أفئدتهم إلى أهل
الحجاز بالعطف والرحمة .

لقد كاد الناس قبل العصر الحالي ينقطعون عن فريضة
الحج وهم محقون ، فلقد كان الحاج يخرج من داره وهو معتقد
انه متعرض للخطر وللموت ، ولذلك كان أهله يبعون
عند خروجه .

ولعلك لا تدرك قيمة أرواح الناس في ذلك العهد !! لقد كان
القتل في تلك الأراضى أمرا هينا ، وإذا ظننت أن في هذا أية
مبالغة فأليك ما كتبه المغفور له ابراهيم رفعت باشا في رحلاته

التي انتهت سنة ١٩٠٨ في زيارة لجبل النور ، في غار حراء ،
بالصفحة التاسعة والخمسين ، ينبغي لنا أن نرى هذا الجبل أن يحملوا
معهم الماء الكافي وأن يكونوا جماعات يحملون السلاح حتى يدفعوا
عن أنفسهم شر اللصوص من العربان الذين يتربصون لسلب
الحجاج . فقد بلغني أن أعرابيا قتل حاجا فلم يجد معه غير ريال
واحد فقيل له : أقتله من أجل ريال ؟ فقال وهو فرح : ان الريال
أحسن منه !! فانظر كيف بلغت القسوة من هذه القلوب . الخ ،
ويبدو لي أن رفعت باشا يحمل الأحكام مسئولية هذه الفوضى
وإن كان يذكر ذلك بأسلوب الحكيم إذ يقول : ان للشریف
يدا قوية في الدولة ، فأى الأمور طلب أجيب إليه ، بل غالب
الشكايات منه ترد إليه ليفصل فيها بما شاء من شرع أو هوى
ولا معقب لحكمه ، فالويل كل الويل لمن شكك ، نعم هذه اليد
المستبدة ، كذا ، تناسب حال الأعراب . ولكن لو ضمت
إلى القوة العدالة لكبح الأشرار عن سيئاتهم ، لأن للعدل
من السلطان على النفوس ما ليس للقوة الغاشمة .

أليس هذا صريحا في أن الباشا ينسب الفوضى إلى الشريف
نفسه ، ويتهمة بأنه يحميها ؟! لقد سمعنا إذ كنا في الحجاز من رجل
محترم حضر العهدين ان رجال الحكم فيما مضى كانوا على اتصال
بالقتلة والسفاهة واللصوص ، وكان لبعضهم على بعض إتابة ،
والعهدة في ذلك طبعا على الراوى ، وهو كما قلنا رجل محترم .

وقد ساق في التدليل على ذلك قصة فقد أمتعته وكيفية البحث عنها في سنة من السنين ، على أنى لا أجد محلا للشك في تلك الروايات كلها وإلا فما سبب انقلاب الحال من فوضى الأمس إلى أمن اليوم إلا أن يكون الانقلاب من ظلم الأمس إلى عدل اليوم ؟ ! تلك أفكار جالت بخاطري فقطعت في ذكرها الطريق من مكة إلى عرفات ، وها نحن قد وصلنا ولا تزال الشمس طالعة تسطع بأشعتها الذهبية اللامعة على رمال عرفة وجبل الرحمة ، فسبحان خالق الشمس والرمال ، وسبحان خالق الطبيعة وما يحف بجلالها من جمال .

أيها الناس : اطربوا وافرحوا . أيها الحجاج اذكروا الله ولا ذكر هنا لغير الله . أفما راعكم أن يجمع الله ثمانين الفا من الناس من مختلف الأقطار في قطعة من الأرض مقفرة ، فلا تلبث بين عشيّة أو ضحاها أن تمتلئ بالخيام وبالناس وبالمتاجر والجمال والسيارات ، ثم لا تلبث ان تنفض هذه الجموع الزاخرة غدا فتعود مقفرة كما بدت ، ثم تبقى هكذا إلى العام القادم ؟ .

لقد اجتمعنا هنا للعبادة والانقطاع لها ، فكم نستمتع بهذه العبادة ؟ ان تلاوة الدعاء المعروف أحلى عندى آلاف المرات من ألف قيثارة في يد أعظم الفنانين شأنا ، إنه طرب ليس بعده طرب ، وفرح لا يعدله فرح ، ولذة روحية لا تضارعها لذة .

نحن في ليلة وقفه عرفات ! في عرفات نفسه ، فأى توفيق
أبدع من هذا ؟ لو كنا في ديارنا لسكانت كل أمانينا أن نجتمع
بأولادنا وأهلنا وأقاربنا ، ولكن الله جل جلاله وروعة قدرته
الخارقة جعلت أفكارنا محصورة في عرفات وحده .

وتسامرنا مع زملائنا ثم انصرفنا إلى النوم فاستيقظنا قبيل
الفجر ، ودنا إلى الاجتماع في الصباح ، فقلت تعالوا بنا نشترك
في غداء اليوم ، وفعلاً اشتركنا وساهم كل منا فيه بنصيب ، وما كان
الغداء إلا حملاً ثمنه خمسة وأربعون قرشاً وبعض من البطاطس
والبطيخ ، ولكنه كان غداء جميلاً شهيماً .

ولقد كان نهار عرفات حاراً بمقدار ما كان ليله بارداً ، ولكن
جمال الموقف ألهانا عن البرد وعن الحر معاً .

إن الوقوف بعرفات شرطه أن يكون بعد زوال اليوم التاسع
ويمتد إلى غروبه ، ومعلوم أن عرفات كلها موقف ، ولكن أنى
إلا أن نصبر على الزقزق بكائنات الجبل على قيد أمتار شتى وأنى
لنا الصبر على صعود الجبل إلى وقت الوقوف ، فلنذهب
إلى الجبل فنصعد عليه لنستمع به ، ثم لا ضير أن نعود بعد
ذلك في الموعد الذي يتم فيه الحج .

لقد انتشر رجال الشرطة لمنعوا الازدحام عليه ، مخافة أن
يصيبهم مكروه من جهة ، وليظل الطريق واسعاً حتى يحضر

الملك ويصعد عليه من جهة أخرى ، ولكننا استطعنا أن نصعد إليه ، وهو مدرج تدريجاً بعضه طبيعى وبعضه قد هذبته يـد الانسان ، وقد شاهدنا عليه مصلى قيل إن النـبى عليه الصلاة والسلام قد صلى فيها ، ولكن المؤرخين ينفون هذه الرواية ويقررون أنها نشأت بعد عهده عليه السلام ، ووجدنا فى أعلاه مسطحاً كبيراً مستوئ الأرض ، مربع الشكل منتظم الوضع فوقنا عليه قليلاً ثم انصرفنا .

إن العادة قد جرت على أن يصعد على جبل الرحمة خطيب شرعى يخطب الناس ويدعو ، وهم يرددون دعاءه ويقولون فى صوت واحد : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ،

وكانت ساعة رهيبة حين اجتمع الحجاج على جبل الرحمة وعلى سفحه فلا تكاد تتبين اجسامهم أو ترى الأرض من تحتهم لكثرة عديدهم ، ولا شك ان هذه لحظة من لحظات العمر التى تسمى فيها النفس عن الحياة وعن الأحياء .

وإنه لمنظر حبيب رهيب إن غاب عن العين فقد سكن فى الذهن لا يغيب عنه أبداً ، وإنها لذكرى كل شىء فى العالم يندى إلهها .

وإن تعجب لقدرة الله فان يكون عجبك مقصورياً على أنه

جل جلاله قد خلق العالم بما فيه من نعماء ، ولا لأنه خالق الإنسان
وصوره وأودع فيه كل بهاء ، بل سيظهرك اجتماع هذه الآلاف في
صعيد منعزل عن العالم ، مقفر ، ويزداد عجبك إذا شاهدت الماء
ينساب في هذه الجبال . هنالك مدت زبيدة الصالحة زوج
هارون الرشيد عين حنين في قناة إلى مكة لكي تروى الظامئين ،
لأنها عرفت ما يقاسيه الحجاج من قلة الماء ، فأمرت بهذا العمل
الذي يعتبر من أهم الأعمال العمرانية الخيرية الخالدة في تلك
الأراضى الجذباء .

لقد فات غروب اليوم التاسع من ذى الحجة . وقفنا ووقفنا
بعرفات وأتم الله نعمته علينا فقم الحج . اللهم لك الحمد والشكر
على ما أوليتنا ، اللهم وفقنا لما بقي من الواجبات واجعلنا
من المقبولين فسنصرف إلى المزدلفة فمضى ، وسينصرف اليهما
هؤلاء الناس جميعا في لحظة واحدة ، وسينفض الجمع في عرفات
ولا يجتمع فيه أحد إلا بعد عام كامل ، وهؤلاء جميعا منصرفون
طواعية وخضوعا لقوله تعالى : فإذا افضتم من عرفات فاذكروا
الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم ، فإلى المشعر
الحرام جميعا .

ولما وصلنا وقفنا بنا الرجال لتجاذب أطراف الحديث

ثم أخذنا في جمع الحصيات من الأرض لئلا نرجم بها في منى .
ولا يهولنك أن تعلم أن الثمانين ألفاً من الحجاج يجتمعون
على هذه الأرض ليجمع كل منهم بين الخمسين والسبعين حصاة
تقريباً من حجم معلوم ، وهذه الأرض تتيح ذلك كله . وليس
هذا سهلاً ، ولكن الله يسره لي ، فقد ذهبت لصلاة العشاء
فأخبرت أن بالمزدلفة مسجداً رأيت ضوءه على بعد يسير
فذهبت إليه فوجدته مؤلفاً من سور قصير يحيط بقطعة من الفضاء
عارية عن السقف ، خالية من الفراش ، فتسللت ولا حظت أن به
عدداً من الحصى فجمعت منه حاجتي ، وبعد ذلك جلست تحت
النساء أنتظر ساعة الانتقال إلى منى ، وكان الجو بارداً جداً أصابنا
منه شيء ، ولكنه كان في سبيل الله .

بَيْنَ مَسْنَى وَمَكَّةَ

ركبنا سيارتنا في المزدلفة بعد منتصف الليل ، وتوجهنا الى الخيمة التي اقامها لنا مطوفنا فألقينا متاعنا وجلسنا نستريح ، وكان الهواء عاصفاً حتى كاد يقتلع قوائم الخيمة لولا أنها كانت مثبتة فتغلب عليه ثباتها وبقينا بها حتى مطلع الفجر ، ثم اجتمعنا وانقسم جمعنا الى فريقين : يرى أولهما أن الجمار يمكن رميها في ذلك الوقت ، ويرى الثاني أنه يجب أن يكون رميها عند الظهر ، ولكلنا أجمعنا بعد ذلك حسب ما قرر العلماء على أنها ترمى في صباح ذلك اليوم ، فتوجهنا اليها لرميها استعدادا للزول الى مكة بعد ذلك .

ولقد كان منظر آرائنا أن ترى الناس على اختلاف طبقاتهم وبلادهم وبينهم الملوك والامراء يتوجهون بنظام واحد الى هذه الجمرات فيرمونها بالأحجار التي التقطوها من المزدلفة ، ولهذا ذهبنا افواجا متلاحمة الى جمرة العقبة ، في أول منى فقدفناها بسبع حصيات ثم انصرفنا مكبرين واتجهنا الى مكة حيث قمنا بطواف الافاضة وسعينا بين الصفا والمروة ، ثم عدنا الى منى حيث قضينا ليلتنا . وفي زوال اليوم الثاني رمينا الجمار ثلاث مرات ، وكذلك في اليوم الثالث ، ثم عدنا مرة أخرى الى مكة للاستعداد للسفر الى المدينة المنورة . وفي خلال ذلك دعانا ملك الحجاز لتناول العشاء على نحو ما أوضحته سابقا .

وقد قضينا بمنى أيام العيد، وكنا نحس أننا حقيقة في عيد
تبادل الزيارة والتهانى مع زملائنا، وللحكومة المصرية هناك
أثر جليل، فلها مبنى به سبيل للمياه واستراحة للزائرين، ولها
بعثتها الطبية تداوى المرضى وذوى العلة من جميع الطبقات
والجنسيات، وتصرف لهم الأدوية بغير مقابل .

ولست أخفى عليك أن مسألة رمى الجمار كانت محل تفكير
الكثيرين منا يسألون عن علتها ومغزاها، ويقول بعضهم : أى
أثر لهذا العمل على الشيطان، وقد كنت من المحبذين والمؤيدين
لرمى الجمار حتى دون أن تبحث علة ومغزاه، ذلك لأن
الاحساس الذى يستولى على النفوس وقت رميها إنما هو
احساس صحيح بالعصاة التى تكمن فى النفوس لهذا الشيطان،
وازدراء أمره واحتقار شأنه، وهو تضامن واتحاد بين الناس على
هذا الازدراء وذلك الاحتقار .

على أنه قد ثبت فوق ذلك أن لرمى الجمار حكمة أخرى هى
احياء عهد ابراهيم عليه السلام، وفى ذلك ما فيه من غذاء للنفوس
بدين الله وذكر للتاريخ القديم، ولهذا فانك لا يمكن أن تعبر عن
الشعور الذى يستولى عليك حين القيام بهذه الحركات الاجتماعية
التي يؤديها مختلف المسلمين من شتى البلاد .

وبعودتنا الى مكة بعد اتمام طواف الافاضة والسعى
وتحللنا من الإحرام على النحو الذى سبق بيانه ينتهى الحج

بسلام، واذ ذاك أحسست أنى أدت الفريضة، ودعوت الله أن يستجيب حجي، وأن يقبل عبادتي، وأن ييسر لي أمر زيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام .

وتوجهنا الى رئيس المطوفين، وطلبنا اليه التصريح لنا بالسفر فامتنع قائلاً : ان الحكومة الحجازية أمرت بألا يغادر حاج مكة الا بعد صلاة الجمعة، فتوجهنا الى سفيرنا هناك وعرضنا عليه الأمر وأفهمناه أن إجازتنا على وشك الانتهاء، وانه ليس هناك بد من رحيلنا الى المدينة لنقضى بها واجبنا ثم نغادرها الى بلادنا حيث ينتظرنا أهلونا وأعمالنا، فتعهد بتيسير مهمتنا واتفق معنا على أنه سيتحدث مع وزير المالية الحجازية في هذا الشأن في حفلة العشاء التي كنا مدعوين اليها في قصر الملك مساء ذلك اليوم، وفعلاً استصدر من الوزير تصريحاً بسفرنا فاصطحبنا مطوفنا بعد ذلك الى شركة السيارات، ولكن مديرها أبى أن يسمح لنا بسيارة إلا أن يصله تصريح رئيس المطوفين وهذا الأخير حين عرضنا عليه حالنا تعنت دعنا إلى حد كبير . ولا بد لي من أن أقف هنا وقفة طويلة استصرخ فيها حكومة الحجاز ألا تضع حرية الحجاج ومصالحهم في يد هذا الرئيس، وهو رجل طاعن في السن، ضيق الصدر، قليل الاكتراث بمصالح الناس وأوقاتهم، فلست ترى مطلقاً أى حاكم يعامل رعاياه بهذا العنف الذى يلقي به هذا الرئيس من يتقدمون اليه، فهو يتخذ

مكانه في غرفة يقف على بابها ثلاثة من رجال الشرطة يحجبون الناس عنه ولا يدخلون أحداً إلا بأذنه ، فإذا دخلت عليه تجهم وإذا كلمته سكت ، وإذا نطق ثار ، وإذا دخل عليه أحد المطوفين ابتدره بالسب والاهانة ، ووجه اليه من الإهانة ما لا يخاطر على أى بال . كنت اعتقد أن المسألة عنده مسألة نظام وحقوق فطلبت اليه التصريح لنا بالسفر فصمم على الامتناع ، فصارحته بأمر الوزير فأبدى عدم الاكتراث بهذا الامر ، فخرجت من عنده ساخطا على هذه المعاملة متأففا من تصرفه وشكوت الى اخواني فرأوا أن أعيد مقابلة الوزير ، ولكن الوزير كان غائبا عن ديوانه ، فرأيت أن أتحمّل على نفسي وأعود الى مقابلة هذا الرجل ، واستصحبته صديق الاستاذ زكى بك حسين ورجوته ان يصانع الرجل ، لأن نفسي لا تحتمل التحدث اليه بعد ما حدث ، ودخل من خلفنا مطوفنا فاشتراط الرجل علينا ألا يحدثنا الا اذا خرج المطوف من بيننا . وبعد مناقشة طويلة صرح لنا بالرحيل ، فأخذنا منه التصريح وذهبنا به الى شركة السيارات وكان ذلك في الساعة الثامنة من مساء يوم الثلاثاء واتفقنا على أن السيارة ستصل الينا قبيل الفجر ، فحزمنا أمتعتنا وقضينا الليل كله في الانتظار ، وجاء الفجر ، ثم طلعت الشمس ثم علت ولم تحضر السيارة ، فذهبنا الى الشركة مرة أخرى ، ولكن المطوف لهوى في نفسه استحضّر سيارة تزيد حمواتها عن عددنا

وأوهمنا انه استصدر تصريحاً لآخرين فركبنا جميعاً وخرجنا الى ابواب مكة قبيل الظهر، ونحن راضون بما تم ، غاضون أنظارنا عما لقيناه من الإغاثات، ولكن حارس الباب في مكة منعنا لأن عددنا يزيد عن المصرح لهم .

فأى تصرف هذا الذى فعله المطوف والذى فعله رئيسه ، وأى عبث بالحريات وكرامة الناس هذا الذى ارتكبه المطوف أخيراً ؟ وبعد طول السعى انصرفنا بعد الغروب بعد أن ظللنا واقفين بباب مكة ست ساعات كاملة .

كل شيء جميل فى بلاد الحجاز حتى منازلها على بساطتها تبعث فى النفس روعة وجلالا ، وطعامها على قلة أنواعه يبعث فى النفس لذة وإقبالا . وهواؤها عليل وجوها جميلة والمعيشة بها هادئة مستحبة ، ولولا أن الوقت ضيق لأطلنا المسكن بها . فإن أهلها ذوو همة ونشاط وكل منصرف الى ما هو ميسر له . وليس فى مكة عيب إلا هؤلاء المطوفون ورئيسهم ونظام شركة السيارات بها ، ولو أن حكومة الحجاز عالجت هذا الموضوع وجعلت السفر حراً والطواف حراً لما وجد أى معترض اعتراضاً على مكة وما فيها، ولكن ذلك دافعاً للناس الى الحج فيزداد عددهم كل عام ، ولكن هذه الطريقة العنيفة المذلة للنفوس الحابسة للحريات لها اسوأ الأثر فى قلة الحجاج فيجب أن يلغى ما يسمونه « بالفسح ، أو نظام « الفسح ، حتى يطمئن الناس الى حريتهم

ولن يقلل ذلك شيئاً من النفقات التي ينفقها الحجاج في كل عام.
وإذا لم يك بد من تحديد يوم لا يسافر الناس قبله فلتترك لهم
الحرية الكاملة في ذلك اليوم فلا تتدخل الحكومة في ترحيلهم
وليس يجوز أن تستغل الفريضة على هذا النحو من الاستغلال.
ولا يفوتني وأنا أغادر مكة ، متجها الى المدينة المنورة من
طريق جدة الذي لا طريق سواه ، أن أنوه بأن الكعبة ليست
هي المسجد الوحيد بمكة ، ففيها من المساجد الأثرية مسجد الازابة
الذي صلى فيه النبي عليه الصلاة والسلام ، ومسجد الصديق ،
ومسجد البيعة عند حدود منى وكثير من المساجد الأخرى ، لكن
الناس لا يقضون صلواتهم ولا تهجداتهم الا في البيت العتيق
كذلك لا يفوتني أن أذكر أن بها دورا تاريخية كدار النبي عليه
الصلاة والسلام في سوق الليل ، ثم دار خديجة بنت خويلد
ودار أبي سفيان التي تشغلها الصحة العامة الآن . وبمكة من
الجبال : جبل حراء ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتعبد
في إحدى مغاراته ونزل عليه الوحي أول ما نزل فيه .
غادرنا مكة على النحو الذي أسلفت ، واتجهنا الى جدة حيث
تركنا بها الجزء الأكبر من امتعتنا ثم واصلنا السير الى المدينة
واسـترحنا بعض الوقت في المحطات القائمة على الطريق
فاسترحنا في رابع ثم قضينا ليلة في آبار ابن حصان حتى إذا طلعت
الشمس أشرقت نغـوسنا لدخول المدينة .

المدينة المنورة

طلعت الشمس وركبنا سيارتنا إلى المدينة المنورة ، ونحن
ممتلئون فرحا وغبطة وجلست بجوار السائق ، فأخذ يحدثني عن
المدينة وما فيها وقال لي بلمحة المؤمن الممتليء بالإيمان انه لا يمل
الطريق مهما تكرر ذهابه وإيابه ، لأنه إذا ذهب إلى مكة تقبلته
الكعبة المقدسة ، وإذا عاد إلى المدينة فوجهته قبر الرسول
والصحابه ، فهو فرح في الحالتين ، واستمر بنا المسير حتى رأينا
على بعد مباني تعلوها قبة عالية قال انها هي القبة الخضراء التي
تظلل قبر محمد عليه الصلاة والسلام .

فذكرت اذ ذاك ان النبي صلى الله عليه وسلم ولد بمكة
وشاءت الاقدار أن يلاقى ربه في المدينة ، وذكرت قوله تعالى :
« وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي
أرض تموت » وأن المؤرخين أجمعوا على أنه صلوات الله
وسلامه عليه ولد بمكة ولكنهم اختلفوا في مكان مولده فقيل :
انه ولد بشعب بنى عامر شرقي مكة ، وقيل انه ولد بدار محمد بن
يوسف الثقفي ، وقيل إنه ولد بشعب بنى هاشم إلى غير ذلك من
الروايات ، وذكرت بعد ذلك ما لقيه عليه السلام من أهل مكة
وما اضطره إلى الهجرة إلى المدينة المنورة خوفاً من أهل مكة

وحدثني نفسي بما يقال في هذا من أسباب ، فقلت إن الله جلت قدرته الذي مكن له في الأرض وأدان له رقاب الأمراء وهياً له من السلطان ما نفذ إلى قلوب المسلمين جميعاً وما بعث في قلوب أهل الكتاب احترامه والعمل بنواميسه حتى جعلوا أعماله نبراساً لهم وكتابه قانونهم فأخذوا عنه العلم والتشريع واهتدوا بهداه إلى الاختراعات العظيمة التي ملأت الدنيا حياة وحركة ، وسموا وسعادة ، كان قادراً أن يحفظه من طغيان أهل مكة ويتكفل بحمايته وحفظه من كل أذى ، فلا بد من حكمة سامية لهجرته إلى المدينة ليقم بين أهلها ويقيم معه صحابته ، وأيقنت أن المدينة لا بد ذات سحر وجمال باهرين ، ووصلنا إلى مدخلها فوجدنا رجال الشرطة يرقبون كل سيارة تفد إليها ، ووجدت المدخل بوابة عظيمة البنيان ، وإذا جاوزتها شاهدت مبنى جميلاً علمت أنه محطة السكة الحديد الحجازية التركية ، ووجدت بها بعض القاطرات الواقفة والقضبان المهملة ، ولم أرد أن أشغل نفسي بمعرفة سبب تعطيلها ، لأنني كنت قاب قوسين أو أدنى من حرم الرسول فسارعت إلى الفندق حيث تركت متاعى واغتسلت وغيّرت ملابسى ولبست الملابس البيضاء وسارعت إلى باب السلام فدخلت برجلي اليمنى ثم أتبعتها باليسرى ووقفت أمام قبره عليه السلام ، ثم قبر أبى بكر وعمر وقرأت دعائى عند كل منهم .

ولست أستطيع أن أصور لك ما عراني من تأثر نفسي

وروحى، وما تصوره عند هذه المواقف، فهمى مواقف ليس إلى
تصويرها من سبيل .

تصور أية رهبة وروعة تلاقيها وأنت في هذا الموقف ؟
لقد كان المسجد بالغاً أسمى آيات الزخرف، وبالغا أسمى درجات
الفن، لكننى مع ذلك كنت مأخوذاً بما هو أجل من ذلك،
بما لرسول الله من عظمة وجلال .

كنت مشغولاً بتلاوة دعاء أخذ على نفسى كل
إحساسها وشعورها، وهو « السلام عليك يا رسول الله ورحمة
الله وبركاته، أشهد أنك نبي الله، وإنك قد بلغت الرسالة وجاهدت
في سبيل الله حتى تم النصر لك، قد وفيت عهدك وأمرت ألا
نعبد إلا الله وحده لا شريك له، ولقد خيل إلينا من جمال هذا
الموقف وروعته أننا لسنا أمام قبر الرسول بل في حضرته، وقد
اعتقدت أنه يرانى، وكنت أشد ما أكون شوقاً لرؤيته، ولم
أشعر يوماً ما بمثل ما شعرت به من المهابة أمام قبره الشريف .
ولقد شاهدت أمام المقصورات التى زرناها حرس جلالة
الملك يحولون بين الناس وبين التمسح بأسوارها النحاسية الجميلة،
ذلك لأنهم يخشون على الناس أن تلهيهم هذه المظاهر عن
الحقائق، وإن تنصرف عقائدهم إلى أن هذا التمسح والتقبيل
أثر من آثار العبادة، ففى ذلك بدعة يعملون على إبطالها، وقيل فى
صدد هذا الموضوع إنهم كانوا يرون رفع هذه المقاصير وقصر

الحال على إبقاء القبور عارية كما فعلوا في القباب التي كانت تزين مقابر البقيع ، لكي يعلم الناس ان التمسح بالنحاس والجدر أمر ليس من العبادة في شيء ، بل إنه من البدع المنهى عنها ، ولكنى لست أدري لماذا يحرم الناس من التمييز بين قبور العظماء وقبور العامة ؟ اليس الحياة كالموت ؟ واليس الموت هو الحياة ؟ فما بال الأغنياء يشيدون القصور كي يتمتعوا أنفسهم فيها بما لذ من طعام وما جمل من الزينة وما يحقق أكبر رفاهية من الطنافس والأنوار ، وهم يعلمون أن العامة لا يبلغون من ذلك كثيراً ولا قليلاً ؟

إن قبور الأنبياء والخلفاء والصالحين إنما تزخرف ويخلع عليها من الطنافس والكساوى ما يعتبر كتكريم من الأحياء لهم وإشادة بما أضفوا على الإنسانية من خير وإصلاح .

أليس الناس بعضهم فوق بعض درجات ، وهم يختلفون في درجات الحياة وبعد الموت ، فكما أن لكل إنسان نظاماً في الحياة الدنيا فكذلك لكل إنسان مقام في الحياة الآخرة ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل مقامه في حياته الأخرى فلا تريب على الناس أن يجعلوا لهؤلاء الأموات الأحياء عند ربهم مقاماً ظاهراً يعرف به فضلهم ليقضى الأحياء بهم .

ومقام محمد لا يعلوه في القلوب مقام ولا يبلغ كائن في النفس مبلغه من التقديس والاحترام ، وما كان للقبّة دخل في هذا

التقدير وهذا التقديس ، لأنها في نفس كل مؤمن صادق الإيمان سواء من رآها ومن لم يرها .

ما ضر لو بقي البقيع مميزاً فيه قبر عثمان وقبر إبراهيم وازواج النبي وحمزة والعباس والحسن بن علي ؟ ما ضر لو ميز هؤلاء بين المقابر ، وما ضر لو أن هذا التمييز رفع في النفوس مكانهم وأبقى على الأيام ذكرهم ، فهم في الواقع عليون في الحياة وبعد الحياة . وقبل مغادرتي المقصورة الشريفة أطرقت إطرقة أحسست فيها أن نفسي استضأت إضاءة لا عهد لي بها من قبل ، وطفقت أكرر السلام عليه وأشهد أمامه ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت يا محمد عبده ورسوله ، وأمينه وصفيه ، وأنت قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت أمتك وجاهدت في الله حق جهاده وأقمت الدين وجاهدت العدو وعبدت ربك حتى أتاك اليقين ، ثم انتقلت إلى قبر أبي بكر الصديق فسلمت على خليفة رسول الله وصاحبه في الغار وأمينه على الأسرار ، ثم انتقلت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فسلمت على مؤيد الدين ومحطم الأصنام ، ثم انتهيت إلى الروضة الشريفة فأديت بها بعض الصلاة ثم خرجت إلى البقيع فزرت قبور الشهداء وأصحاب رسول الله والتابعين .

والحرم المدني آية من آيات الله ، وعمل من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنه لما نزل بالمدينة المنورة مهاجراً اختار

البقعة التي يقوم عليها المسجد الآن وأخذ أنصاره والمهاجرون يبنون عليها المسجد حتى أتموه، وكان أول بناء له بالطريقة التي كانت تعرف إذ ذاك، ثم زاد بعد ذلك في سعة، وزاد فيه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والوليد بن عبد الملك، وظل هذا المسجد تتناوله يد الإصلاح في أوقات مختلفة حتى أمر السلطان عبد المجيد بنقضه وإعادة بنائه على دعائم جديدة، وظلت عمارته عهدا طويلا ثم أتم ما فيه من زخارف ونقوش، ومنذ سنوات قليلة قامت الحكومة المصرية بإصلاح ما خشيت أن يصيبه الخلل من أجزائه.

وفي المدينة عدة مساجد: منها مسجد القبليتين، ومسجد الفتح ومسجد قباء وغيرها من المساجد التاريخية القديمة. ومن جبالها جبل أحد. ومن عيونها: عين الزرقاء، وعيون أخرى كثيرة يستقي الناس من مائها.

تلك هي المدينة المنورة، مدينة المصطفى النبي العربي الأمي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الإصلاحات التي تمت في الأراضي الحجازية بعد أدائي الحج
أشرت في سياق الكتاب إلى ما يلاقيه الحجاج من بعض المتاعب
لاحتياج هذه البلاد إلى اطراد الإصلاح والتقدم العمراني ويهيجني
الآن أن أسجل أن أكثر ما لاحظته قد تناولته يد الإصلاح ،
وإني أدون هنا هذه الإصلاحات في قليل من الكلمات ، فإن مجرد
ذكرها ، وانتفاع مئات الألوف من المسلمين بها منذ إتمامها
لا شك أشادة بها وبمن سارعوا إلى القيام بها وهي :

- (١) رصف طريق جده - مكة - عرفات
- (٢) رصف المسعى وعمل مظلة له .
- (٣) وضع مظلات (تندات) داخل الحرم المكي في امتداد جوانبه .
- (٤) وضع مكبرات للصوت في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة
وفي مسجد نمرة بعرفات لإذاعة القرآن والخطب والأذان .
- (٥) توصيل مياه الشرب من وادي فاطمة إلى جدة والاستغناء
بذلك عن الكندسة .
- (٦) تحويل طريق السيارات من رابع إلى المساجيد تفاديا للاهشقة
التي كان يتعرض لها الحجاج بسلك المنطقة الرملية بوادي
« ابيار ابن حصاني » في طريق المدينة .
- (٧) وضع أنابيب للمياه في عرفات ومنى ، محافظة على مياه
الشرب من التلوث .
- (٨) عمل رصيف جديد لميناء جدة ترسو عليه البواخر لتفادي
المتاعب التي كان يلاقها الحجاج في ركوبهم ونزلهم .

مناسك الحج وأحكامها وموافيقها في المناسك الذهبية

المناسك	الحلفية	الشافعية	المالكية	الحنابلة
النية	شرط	ركن	ركن	ركن
الإحرام من الميقات	ركن	ركن	ركن	ركن
طواف الأفاضة	ركن	ركن	ركن	ركن
السعي	واجب	ركن	ركن	ركن
الوقوف بعرفة في وقته	ركن	سنة	سنة	سنة
الوقوف عند الصخرات الكبار	سنة	سنة	سنة مع الفجر	سنة أو واجب
خطبة الإمام خطبتين	سنة	سنة	سنة	سنة
الجمع بين الظهر والعصر في عرفة	سنة	سنة	سنة	سنة
جميع المغرب والعشاء بزدلفة ..	واجب	سنة	سنة	سنة
التدبير الكافي للنزول بزدلفة ليلة	ساعة قبل الفجر	لحظة من نصف الليل الثاني	بدر حط الرجال في أى وقت من الليل	لحظة من نصف الليل الثاني
النحر واجب ووقته	من فجر يوم النحر	من منتصف ليلة النحر	من فجر يوم النحر إلى الظهر	من منتصف ليلة النحر
رمى جمرة العقبة يوم النحر بسبع	إلى فجر اليوم الثاني	إلى آخر أيام الأضحية	ركن	ركن
حصىات واجب ووقته	إلى فجر اليوم الثاني	إلى آخر أيام الأضحية	ركن	ركن

الذبيح للتقارن بعد الرمي	واجب	أخذ قدر أنملة من ربيع الرأس	واجب	أخذ قدر أنملة من جميع الرأس	واجب	واجب
الحلق أو التقصير واجب وأقله	واجب	—	ركن	ركن	واجب	واجب
الترتيب بين الرمي والذبح والحلق وقسوع الذبح والحلق قبل ظهر يوم النحر	واجب	من بعد الظهر إلى الغروب ويكره في الليل إلى الفجر	إلى غروب شمس اليوم الرابع وأفعله من الروال إلى غروب ذلك اليوم	من بعد الظهر إلى الغروب فقط	شرط	واجب
النزول إلى مكة لطواف الركن يوم النحر	واجب	من بعد الظهر إلى الغروب ويكره في الليل إلى الفجر	إلى غروب شمس اليوم الرابع وأفعله من الروال إلى غروب ذلك اليوم	من بعد الظهر إلى الغروب فقط	شرط	واجب
يوم النحر	واجب	من بعد الظهر إلى الغروب ويكره في الليل إلى الفجر	إلى غروب شمس اليوم الرابع وأفعله من الروال إلى غروب ذلك اليوم	من بعد الظهر إلى الغروب فقط	شرط	واجب
المبيت بمنى ليالى التشريق	واجب	من بعد الظهر إلى الغروب ويكره في الليل إلى الفجر	إلى غروب شمس اليوم الرابع وأفعله من الروال إلى غروب ذلك اليوم	من بعد الظهر إلى الغروب فقط	شرط	واجب
رمى الجمرات الثلاث يوم ١٢ و ١٣ للمتعجل	واجب	من بعد الظهر إلى الغروب ويكره في الليل إلى الفجر	إلى غروب شمس اليوم الرابع وأفعله من الروال إلى غروب ذلك اليوم	من بعد الظهر إلى الغروب فقط	شرط	واجب
الترتيب بين الجمرات الثلاث والخروج من منى للمتعجل قبل المغرب	واجب	من بعد الظهر إلى الغروب ويكره في الليل إلى الفجر	إلى غروب شمس اليوم الرابع وأفعله من الروال إلى غروب ذلك اليوم	من بعد الظهر إلى الغروب فقط	شرط	واجب

مناسك الحج

رأيت ان أبين مناسك الحج على مذهب أبي حنيفة ، وهي كما يلي :

أركان الحج : الوقوف بعرفة في وقته ، وطواف الإفاضة وكونه اربعة اشوط .

شروطه : الإحرام ، والتلبية معه ، ووقوع السعي بعد الطواف .

واجباته : الإحرام من الميقات ، والسعي ، والبدء بالسعي من الصفا ، وإداء السعي ، والطواف مع القدرة ، والبدء بالحجر الأسود في الطواف ، وستر العورة ، وركعتا الطواف ، وتأخير صلاة المغرب مع العشاء ، والنفرة مع الإمام من عرفة ، والوقوف بمزدلفة ، ورمي الجمرات ، والخلق أو التقصير ، والترتيب بين الرمي ، والذبح .

سننه : السعي ، وطواف القدوم ، وعدم الفصل بين السعي والطواف ، وموالاته الاشواط في السعي والطواف ، والمبيت بمنى ايام التشريق ، وعدم تأخير الرمي الى الليل ، وتأخير طواف الإفاضة عن الرمي . ومن أراد المزيد والتفصيل لجميع المذاهب فليراجع الجدول المنشور في الصفحتين السابقتين وما نشر عن ذلك مفصلا في غضون الكتاب